الباب الثالث

الصور المُمَيّزة لحياة هُذَيْل

الفصل الأول : بَينَ أَفْنَاء البَادِيَة.

الفصل الثاني : مَصادرُ الثَّرواتِ فيها.

الفصل الثالث : على نجاد الاستقرار وفي وهاد الانتشارِ.

الفصل الرابع : بَلاغَتُها وفَصَاحتُها.

obeikan.com

obeikandl.com

الفصل الأول

بين أفناء البادية

البادية هي الأرض التي ليس فيها بناء من دور وقصور وغير ذلك،والبداوة هي الإقامة بالبادية وهي خلاف الحضارة، وفي الحديث الشريف: "مَن بدا جَفا" أي: مَن نَزَلَ البادية صار فيه جَفاء الأعراب(١).

والبدو كانوا يمثلون غالبية السُّكان في الجزيرة العربية، وهم قبائل مُتَفَرِّقَةٌ متناثرةٌ في الصحراء التي تُعْرَفُ بالجَدْبِ والقَحْطِ، وهم أقوامٌ رُحَّلٌ يسكنون الخيام ولا يَقرّون في مكانٍ، لأنَّهم يطلبون الكلأ فيتبعون مساقطَ الماء، ومنابتَ العشب حيث يَرحلُون إليها بأغنامهم وآبالهم التي يأكلون لحومَها وألبانها، ويَلْبَسونَ أصوافَها، ثم يتخذون من أصوافها وأوبارها مساكنَ لهم.

ولجدب بلادهم وانصرافهم عن أَوْجه التكَسُّب الأخرى، يُعرف عَنهم القناعةُ من العيش بالكفاف، فلم يفتنوا في ألوان المَطاعم والملابس، بل كانوا يعيشون غالباً على اللبن والتمر واللحم، وكانوا يأنفون من الاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة، بل كانوا يحتقرون مثلَ هذه الأعمال ويرون فيها عاراً كبيراً، ومن عاداتهم الافتخار بالبطولة والقُدْرَة على القتال والنِّزال، ولا شكّ أنَّهم أكثرُ شجاعةً وأقلُّ حُبّاً للمال من أهل الحَضَر.

وحياةُ العرب في البادية حياةُ قِراعٍ وصِراعٍ وحُروبٍ وقتالٍ، وقد انتشرَت بينهم الغاراتُ والسَّلْبُ والنَّهْبُ، حيث يغيرون على القبائلِ المعادية فيأخذون جمالَهم وشاءَهُم ويَسبُون نساءَهم وأولادَهم، ثم تتربصُ بهم القبائلُ الأخرى لتدركَ ثأرَها وتردَّ شرفَها، فتفعلَ بهم مثلَ ما فعلوا بها،وقد اعتمدوا على الخيلِ في السِّلْم وفي الحَرْبِ يصطادون بها الوَحْشَ من الحيوان للغذاء،ثم يُغيرونَ بها ويقاتلون الأعداء، وكذلك الإبل التي كانت عوناً لهم في الحربِ كما كانت في السِّلْمِ، واعتمدوا عليها في حياتهم ومعاشهم، فهي تُدرُّ لهم الحليبَ، وتحملُهم في الأسفار،وكثيراً ما كانت تُقَدَّرُ الثروةُ عندهم بما يملكُه الرجلُ من الحيوانات ولا سيما الإبل والخيل التي كانت لها قيمةٌ عُظْمَى في نَظَرِهم، ولذا كان العربيُّ يميلُ إلى الإكثارِ منها، لأنها الموردُ الحقيقيُّ للرزق والثروة.

---

(١) بلوغ الأرب للألوسي ٣/ ٤٢٥.

والمطرُ في البادية قليلٌ بوَجْه عامٍّ، ويَستَبدُّ بها الجفافُ، وينتشرُ فيها الجَدْبُ والقَحْطُ،فليس فيها من زَرْعٍ إلا ما ينبُتُ من الأعشاب والنباتات، وهي قليلةٌ عموماً، وذلك تبعاً لسقوط الأمطار، ولذلك يهتم السكانُ بالأمطار كثيراً، فيترقَّبون هطولَها، ويتناقلون أخبارَها، لأنَّ فيها الخيرَ والحياةَ لهم ولأنعامهم، وكانوا يفرحون بالمطر ويتيمنون لسقوطه، ويطلقون عليه اسم الغيث، لأنّه يُغيثُ الأرضَ ويُكْسِبُها الخِصْبَ والنماءَ، ويُسعفُ أهلَها فيسقيهم ويحيي لهم الزرعَ والضرعَ. ومناخُ الجزيرة العربية في جملته حارٌّ شديدُ الحرارة في أغلب فصول السَّنَة، وذلك لوقوع أكثر البلاد في المنطقة الحارَّة،وقد يعتدل الليلُ في المناطق المرتفعة صيفاً،ولكنه حارٌّ شديدُ الحرارة في البادية والصحراء، وتكون درجةُ الحرارة في داخل جزيرة العرب مرتفعةً عادةً فلا تَهْبطُ في الصحراء إلى أقلّ من ٣٤ درجة نهاراً و ٣٨ درجة ليلاً[١]. "والجَدْبُ والحَرُّ من أظهر ما عُرِفَتْ به جزيرةُ العرب منذ القديم ، والجَدْبُ على الخصوص هو أشدُّ ما تعانيه... ويدوم المطرُ في جزيرة العرب بضعةَ أشهرٍ على العموم، ومتى احتبسَ عَمَّ الخرابُ، وأصبحتْ تلك البلادُ غيرَ صالحة للسكَنِ تقريباً، ويقترنُ القحطُ في جزيرة العرب بريح السَّمُوم في الغالب، وريحُ السَّموم وعدمُ الماء أشدُّ ما تقاسيه القوافلُ في جزيرة العرب من أخطارٍ"[٢] وقد ذكر ابنُ خلدون في مقدمته[٣] عدَّة فصولٍ تشتمل على فروقٍ شَتَّى بينَ البدوِ والحَضَرِ.

١- فمن ذلك أنَّ البدوَ أقدمُ من الحَضَرِ وسابق عليه، وأنَّ البادية أصلُ العمران والأمصارُ مدد لها،وأنَّ البدوَ هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم، والعاجزون عما فوقَه، وأن الحضرَ هُمُ المُعْتَنونَ بحاجات التَّرف والكمال في أحوالهم وعوائدهم، ولا شكّ أن الضروريَ أقدمُ من الحاجيِّ والكماليّ وسابق عليه، ولأنَّ الضروريَّ أصلٌ والكماليَّ فَرْعٌ ناشئٌ منه، فالبدو أصلٌ للمدن والحَضَرِ، سابقٌ عليهما، لأنَّ أوَّلَ مطالب الإنسان الضروريُّ، ولا تنتهي إلى الكمال والتَّرَف إلا إذا كان الضروريُّ حاصلاً، فخشونَةُ البداوة قَبْلَ رِقَّة الحضارة،ولهذا نَجِدُ التمدُّنَ غايةً للبدوي يَجْري لها،وينتَهي بسعيه إلى مُقْتَرَحِه منها.

---

(١) حضارة العرب جوستاف لوبون ص٤١.

(٢) المرجع السابق ص٤٠.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص١٢٢ وما بعدها.

٢- ومنها أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر، والسَّببُ في ذلك أنَّ النَّفْسَ إذا كانت على الفطرة الأولى كانتْ متهيئةً لقَبول ما يَرِدُ عليها وينطبع فيها من خيرٍ أو شَرٍّ، وبقدر ما سبقَ إليها من أحد الخُلُقَيْن، تبعُدُ عن الآخر ويصعبُ عليها اكتسابُه، فصاحبُ الخير إذا سَبَقَتْ إلى نَفْسه عوائدُ الخير وحَصَلَتْ لها مَلَكَتُهُ، بَعُدَ عن الشرِّ وصَعُبَ عليه طريقُه، وكذا صاحب الشَّرِّ إذا سبقت إليه أيضاً عوائدُه، وأهلُ الحَضَر لكثرة ما يُعانون من فنون الملاذِّ وعوائد الترف، والإقبال على الدنيا، والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوَّنَتْ أنفسُهم بكثير من مذمومات الخُلُق والشَّرِّ، وبَعُدَتْ عليهم طُرُقُ الخير ومسالكُه بَقْدر ما حَصَلَ لهم من ذلك،حتَّى لقد ذهبَتْ عنهم مَذاهبُ الحشْمَة في بعض أحوالهم، وربما انتشرَتْ عندَهم عوائدُ السُّوء والتظاهر بالفواحش قولاً وعملاً، وأنَّ البدوَ وإن كانوا مُقْبلينَ على الدنيا مثلهم إلا أنَّه في المقدار الضروريِّ لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها، فعوائدُهم في معاملاتهم على نسبتها وماَ يَحْصُلُ فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخُلُق بالنسبة إلى أهل الحضر أقلّ بكثيرٍ، فهم أقربُ إلى الفطْرَة الأولى، وأبعدُ عما ينطبع في النفس من سوء المَلَكات.

٣- ومنها أنَّ أهل البدو أقربُ إلى الشجاعة من أهل الحضر، وذلك أنَّ أهلَ الحَضَر ألقَوْا جنُوبَهُم على مهاد الراحة والدَّعَة، وانغَمَسُوا في النعيم والترف، ووكلوا أمرَهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يَسُوسُهم والحامية التي تولَّتْ حراسَتَهُم، واستناموا إلى الأسوار التي تَحوطُهم ، والحرز الذي يحولُ دونَهم ، فلا تُهيجُهم هيَعَةٌ ، ولا يَنفرُ لهم صَيْدٌ ، فهم قارُّون آمنون قد ألقوا السلاحَ، وتوالت على ذلك منهمُ الأجيالُ، وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيالٌ على أبي مثواهم، حتى صار ذلك خُلُقاً يتنزل منزلةَ الطبيعة.

وأهلُ البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحُّشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية،وانتباذهم عن الأسوار والأبواب، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم ، لا يَكِلونَها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائماً يحملون السلاحَ ، ويتلفتون عن كلِّ جانبٍ في الطُّرُق،ويتجافون عن الهجوع إلا غراراً في المجالس وعلى الرِّحال وفوق الأقتاب، ويتوجسون للنَّبْآت والهَيْعات ، ويتفردون في القفر والبيداء، مُدلين ببأسهم ، واثقين بأنفسهم،وقد صار لهم البأسُ خُلُقاً، والشجاعةُ سَجيَّةً، يرجعون إليها متى دعاهم داعٍ أو استنفرَهم صارخٌ،وأهل الحضر متى

خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السَّفَرِ فهم عيالٌ عليهم، لا يملكون معهم شيئاً من أمرِ أنفسهم وذلك مشاهدٌ بالعيانِ حتَّى في معرفةِ النواحي والجهات ومواردِ المياه ومشارعِ السبل.

٤- ومنها أنَّ معاناة أهلِ الحَضَرِ للأحكام مُفْسدةٌ للبأس فيهم ذاهبةٌ بالمَنَعَة منهم، وذلك أنه ليس كلُّ أحدٍ مالكاً أمرَ نَفْسه،إذ إن الرؤساء والأمراء المالكين لأمرِ الناس قليلٌ بالنسبة إلى غيرهم، فمن الغالبِ أن يكونَ الإنسانُ في ملْكَة غيره،ولا بُدّ ، فإنْ كانت المُلْكَةُ رفيقةً وعادلةً لا يعانى منها حكم ولا منع وصَدَّ كان الناسُ من تحت يدها مُدْلين بما في أنفسهم من شجاعةٍ أو جُبْنٍ أو واثقين بعدمِ الوازعِ حتى صارَ لهم الإدْلالُ جبلَّةً لا يعرفون سواها، وأما إذا كانت المُلْكَةُ وأحكامُها بالقهرِ والسطوةِ والإخافة فتكْسر حينئذ من سورة بأسهم،وتذهب المَنَعةُ عنهم لما يكون من التكاسُلِ في النفوس المضطهَدَة.

٥- ومنها أنَّ سُكْنَى البادية لا تكونُ إلا للقبائلِ ذوي العصيبة، وذلك أن أهل المُدنِ والأمصارِ تقوم الدولةُ عندَهم والحكامُ بدفعِ العدوانِ الذي قد يكون من بعضهم، وتمنعُ أن يعتديَ بعضُهم على بعضٍ، فهم مَكْبُوحون بحَكَمَة القهرِ والسلطان عن التظالم، وأما العدوان الذي من خارجِ المدينة فيدفعُه سياجُ الأسوارِ عند الغَفْلَة أو الغِرَّة ليلاً أو العَجْزِ عن المقاومة نهاراً، أو يدفعُه ازدیادُ الحامية من أعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة، وأما أحياءُ البدوِ فيزَعُ بعضُهم عن بعض مشايخُهم وكبراؤُهم ،بما تَوفَّرَ في نفوسِ الكافَّة لهم من الوقارِ والتَّجلَّة والهيبة، وأما حلَلُهم فإنّما يذودُ عنها من كان خارج حامية الحي من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم، ولذلك لا يصدقُ دفاعُهم وذيادُهم إلا إذا كانوا عصبيةً وأهلَ نَسبٍ واحد ,لأنّهم بذلك تَشتدُّ شوكتُهم ويُخشىَ جانبُهم، إلى غير ذلك من الفروق التي أفاض بذكرها في مقدمته والتي لا مَجالَ لذكرها هنا.

وأهمُّ ما يمتازُ به البدويُّ أنَّ نسَبهُ صريحٌ لم يدخلْه اختلاطٌ، وذلك لتعمقه في الصحراء في حياةٍ لا تُغْري أحداً بها ولا تَجلبُ الأنظار إليها بل إنها مُخيفةٌ لا يستطيعُ الروادُ أن يأملوا في السلامة فيها إن اقْتَحَمُوها ولذلك بقي العنصرُ البدويُّ سليم النسب، كما حَدَثَ في مُضَرَ من قريشٍ وكِنانةَ وثقيفٍ وهُذَيْلٍ وغيرها(١).

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص١٢٩.

وذكرَ الدكتورُ أحمدُ شلبي أنه كان من نتيجة صفات البادية وصفات البدو أن أصبحَ قلبُ الجزيرةِ مجهولاً، إذ إنه لم يجذبْ إليه الرحالةَ،ولم يستطعْ أهلُ الحَضَرِ أن يجازفوا بدخول هذا المجهول،ولم تزل البادية كذلك إلى أنْ أتاحت لها الأقدارُ بعدَ ظهورِ محمدٍ ﷺ، أن يَقُصَّ أخبارَها مَن نَزَحَ عنها من أهلها، وأن يقفَ العالمَ على كثيرٍ مما كان من قَبْلِ ذلكَ في أتمِّ الجَهْلِ به، ويرى أنه كان من نتيجة صفات البادية أيضاً أن نَجَتِ الجزيرةُ العربيةُ من الاستعمارِ فليس في الصحراء القاحلة ما كان يَجْذبُ أنظار المستعمرين من الفرس أو الروم، الذين كانوا يبحثونَ عن الصيد السمين، كما يبحثُ البدو عن مواطنِ العشْبِ(١).

وكانَ أكثرُ العربِ يؤثرون سُكْنَى البادية ويفضِّلُونَها على غيرها، وذكر الألوسي(٢) أنه لما كان سُكْنَى البادية يقتضي صيانةَ العزِّ والشرفِ رَجَّحَها غالبُ العربِ على الحَضَرِ، وكَثُرَ حَنينُهم إليها، وذكرُ وَحْشِها وطيرِها ورياضِها ونبتِها وشجرِها وأغوارِها وأنجادِها ورياحِها ومياهِها، وكثيراً ما تَغَنَّى الشعراءُ بالبادية، وافتخروا بسُكْناها، فهذا القُطاميُّ(٣) يفتخر بسكنى البادية ويقول: إن كل ما أعجبك من رجال الحضر فهو أكثر عندنا منه عندهم وإن كنا أهل بادية، وإن أهل الحضر إذا فتنوا باقتناء الحمير وربطها فإنا لا نرضى إلا بما عندنا من الرماح التي تسلب النفوسَ والخيلِ الحسان، والتي تعيننا على دفع الأعداء فيقول:

ومَنْ تَكُنِ الحضَارةُ أَعْجَبَتْهُ ... فأيُّ رجالِ باديةٍ تَرانَا

ومَنْ رَبَطَ الجحَاشَ فإنَّ فِينَا ... قنًا سُلُباً وأفراساً حسانَا (٤)

وقد أفاض المسعوديُّ(٤) في الكشف عن جماع إيثارهم اختيار الصحراء وتفضيلهم سُكْنَى البوادي. فذكرَ أنَّ العربَ رأتْ أنَّ جَولان الأرضِ وتخيُّرَ بقاعها على الأيام أَشْبَهُ بالعزِّ وأَلْيَقُ بذي الأَنَفَة، وقالوا: نكونُ مُحَكَّمينَ في الأرضِ نسكنُ حيث نشاء، أصلحُ من غيره. قال: وذكر آخرون أنَّ القدماء من العرب لما ركَّب اللهُ

---

(١) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية د. أحمد شلبي جـ١ ص٧٩.

(٢) بلوغ الأرب للألوسي جـ٣ ص٤٢٥.

(٣) القُطاميُّ لقبٌ غلبَ عليه واسمه عُمير بن شُيَيْم، وهو شاعرٌ إسلامي مُقِلٌّ.

(٤) بلوغ الأرب للألوسي جـ٣ ص٤٢٦.

(٥) مروج الذهب ٢/ ١٢٠.

فيهم من سمو الأخطار ونيْل الهمَم والأقدار،وشدَّة الأَنَفَة والحميَّة من المَعَرَّة والهرب من العار،بدأت التفكرَ في المنازل والتقدير للمواطن، فتأملوا شأن المدن والأبنية فوجدوا فيها مَعَرَّةً ونَقْصاً، ومنهم مَن قال:إن الأرضينَ تمرَضُ كما تمرضُ الأجسامُ وتلحقُها الآفاتُ، والواجبُ تخيّر المواضع بحسب أحوالها من الصَّلاح ، إذ الهواءُ ربما قَويَ فأضرَّ بأجسام سُكَّانه وأحالَ أمزجةَ قُطَّانه . ومنهم من قال: إن الأبنيةَ والتحويطَ حَصْرٌ عن التصرُّف في الأرض ومَقْطَعَةٌ عن الجَولان، وتقييدٌ للهمَم، وحَبْسٌ لها في الغرائز من المُسابَقة إلى الشرف،ولا خيرَ في اللُّبث على هذه الحالة، وقالوا: إن الأبنية والأطلالَ تَحْصُرُ الغذاءَ ، وتمنعُ اتساعَ الهواء، وتسدُّ سروحَه على المرور وقذاهُ عن السّلول، فسكنوا البَرَّ الأفيحَ الذي لا يخافون فيه من حَصْرٍ ولا من منازلة ضُرٍّ، هذا مع ارتفاع الأقذاء،وسماحة الأهواء، واعتزال الوباء، وتهذيب الأحلام في هذه المواطن، ونقاء القرائح في التنقل في المساكن، وصحة الأمْزجَة، وقوة الفطْنَة، وصفاء الألوان، وصيانَة الأجسام، فإنَّ العقولَ والآراءَ، تتوالدُ من حيثُ تولَّدَ الهواءُ ،وطَبَعَ الهواءُ الفضاءَ، وفي هذا أمنٌ من العاهات والأسقام، والعللِ والآلام، فآثَرَت العربُ سُكْنى البوادي، والحلولَ في البيداء، فهم أقوى الناس هِمَماً، وأشدهم أحلاماً، وأصَحُّهم أجساماً، وأعزُّهم جاراً، وأحماهُم ذماراً، وأفضلُهم جواراً، وأجودُهم فِطَناً، لما أكسبَهم إياه صفاءُ الجوِّ ،ونقاءُ الفضاء، لأنَّ الأبدانَ تحتوي أجزاؤها على متكاثف الأكدار، وعناء الأقذار، بما يرتفع إليه، ويتلاطَمُ في عَرَصاته، واقفة من جميع المستحيلات والمستنقعات من المياه، ففي أكنافه جميعُ ما يتصَعَّدُ إليه، وكذلك تراكيبُ الأقذاء والأدواء والعاهات في أهل المدن، وتركَّبَتْ في أجسامهم وتضاعفت في أشعارهم وأنثارهم، ففضلَت العربُ على سائر ما عداها من بوادي الأُمَم المعترضة، لما ذُكر من تخيرها الأماكنَ، وارتياد المواطن إلى غير ذلك.

فالمسعوديُّ رَدَّ ذلك إلى أنهم رأوا في المدن والأبنية مَعَرَّةً ونقصاً، لأنَّ التحويطَ والأبنية حَصْرٌ عن التصرُّف في الأرض، ومقطعةٌ عن الجَولان والتنقل، وتقييدٌ للهمَم، وحَبْسٌ لما في الغرائز من السابقة إلى الشرف، بينما البرّ الأفيحُ يصونُ الأجسامَ، ويُهذّبُ الأحلامَ، وينجيهم من العاهات والأسقام، ومن الحق ما لحظَهُ المسعوديُّ، فيقال: إن بعضَ خطباء العرب وفدَ على كسرى أنو شروان،فسأله كسرى عن شأن العرب وسكناها واختيارها البدوَ؟ فقال:أيُّها الملك ملكُوا الأرضَ ولم تملكْهُم،وأمنوا من التحصين بالأسوار،واعتمدوا على المُرْهَفات الباترَة والرماح السامرة، فمن مَلك

قطعةَ من الأرض فكأنها كلّها له، يردون منها خيارَها ويقصدون ألطافَها. قال: فأين حظوظهم من الفلك؟ قال: من تحت الفرقَدَيْنِ ورأسِ المجرَّة وسعد الجدي مُشْرِفَيْنِ على الأرض بحسب ذلك! قال: فما رياحها؟ قال: أكثرها النكباء بالليل، والصَّبا عند انقلاب الشمس، قال: فكم الرياحُ؟ قال أربع فإذا انحرفتْ واحدةٌ منهن قيلَ نكباء، وما بين سُهَيْلٍ إلى طرف بياض الفجر جنوبٌ، وما بإزائها مما يستقبلهما من المغرب شمالٌ، وما جاء من وراء الكعبة فهي دَبُور، وما جاء من قبل ذلك فهي صَبا، قال: فما أكثر غذائهم؟ قال: اللحمُ واللَّبَنُ والنبيذُ والتمرُ، قال: فما خلائقُهم؟ قال: العزُّ والشرفُ والمكارمُ وقِرَى الضيف، وإذمارُ الجار، وإجارَةُ الخائف، وأداءُ الحمالات[1]، وبذل المُهَج في المكرمات، وهم سراة الليل، وليوث القيل، وعمار البرِّ وأنسُ القَفْر، أَلفوا القناعةَ وسبقوا الضراعةَ، لهم الأخذُ بالثأر، والأَنفةُ من العار، والحمايةُ للذِّمار! قال كسرى: لقد وصفتَ هذا الجيلَ كرماً ونبلاً، وما أولانا بإنجاح ذلك فيهم![2]

ومن هنا لا عجبَ أن يألفَ العربُ البادية إلفاً عظيماً، وأن يَنْزِعُوا إليها ويحنوا إلى أيامها ولياليها، إذا أجبرَتْهُمُ الظروفُ القاسيةُ على مغادَرَتها أو البعد عنها، أو النأي عن حيوانها وطيرها وريحها، حتَّى ليشتدَّ الصراعُ في نفوسهم ويكاد يعصفُ بهم، وقد ظلُّوا على ذلك يحنون إلى صحاريهم وبواديهم حتى في ظِلِّ الإسلام، ولا بِدْعَ في ذلك فقد نَشَؤُوا في البادية وأحبّوها وفُتنوا بها وعاشوا فيها.

وهذه مَيْسونُ بنتُ بَحْدَلٍ الكلابية لم تَفْتنْها قصورُ مُعاويةَ في الشام، بما فيها من ألوان النعيم والتَّرف والبذْخ، فكانت تُكْثِرُ من الحنين إلى البادية مسقط رأسها، وتكثر الشوقَ إلى حياة البادية بما فيها من مزعجات، فاسْتَمَعَ إليها ذاتَ يومٍ وهي تُنْشِدُ هذه الأبيات:

لَبَيْتٌ تَخْفِقُ الأرواحُ فيه ... أحَبُّ إليَّ من قصرٍ مُنيفِ

ولُبْسُ عباءةٍ وتَقَرَّ عيني ... أحبُّ إليَّ من لُبْسِ الشُّفوفِ

وأكلُ كُسَيْرَةٍ في كِسْرِ بَيْتي ... أحبُّ إليَّ من أكلِ الرغيفِ

وأصواتُ الرياحِ بكلِّ فَجٍّ ... أحبُّ إليَّ من نقْرِ الدُّفوفِ

---

(١) الحمالة: الدية والغرامة.

(٢) بلوغ الأرب للألوسي ٣/ ٤٣٤.

وكلبٌ يَنْبَحُ الطُّراقَ دُوني ... أحبُّ إليَّ مِنْ قِطٍّ ألوفِ
وبَكرٌ يَتْبَعُ الأَظْعانَ صعبٌ ... أحبُّ إليَّ مِن بغلٍ زَفوفِ
وخِرْقٌ من بني عَمّي نَحيفٌ ... أحبُّ إليَّ مِن عِلجٍ عليفِ (١)

فلما سمع مُعاويةُ الأبيات قال لها: ما رَضِيَتْ ابنةُ بَحْدَلٍ حتّى جعلَتْني عِلْجاً عَلِيفاً؟!

وهذا أميةُ بن أبي عائذٍ الهُذَلي، وهو في العصر الأُمويِّ كذلك ـ يتشوق إلى البادية، وذلك بعد أن طالَ مقامُه بمصرَ عند عبد العزيز بنِ مروان، الذي كان يأنسُ به،ويصلُه بصلاتٍ سَنِيَّةٍ ـ فنراه يتشوقُ إلى البادية وإلى أهله، فيقول لعبد العزيز:

متى راكبٌ مِن أهلِ مِصْرَ وأهلُهُ ... بمكَّةَ مِن مِصرَ العَشِيَّةَ راجِعُ
بل إنها قد تقطع الخَرْقَ ضُمَّرٌ ... تُبارِي السُّرَى والمُعْسِفون الزَّعازِعُ
متى ما تُجِزْها يابنَ مروانَ تَعتَرِفْ ... بلادَ سُلَيْمَى وهي خوصاءُ ظالِعُ
وباتَتْ تَؤُمُّ الدارَ مِن كلِّ جانبٍ ... لتخرُجَ واسْتَدَّتْ عليها المصارِعُ
فلما رأتْ أَنْ لا خروجَ وإنما ... لها مِنْ هواها ما تُجِنُّ الأَضالِعُ
تمطَّتْ بمجدولٍ سِبَطْرٍ فطالَعَتْ ... وماذا من اللَّوْحِ اليمانِي تطالِعُ (٢)

فقال له عبد العزيز : اشتقتَ واللهِ إلى أهلكِ يا أميةَ، فقال: نعم واللهِ أيُّها الأمير فوصلَه وأذنَ له.

وهُذَيْلٌ قبيلةٌ باديةٌ كغيرها من العربِ العدنانيين،وقد ذكرَ السويديُّ أن مواطن بني عدنان مختصة بنَجْدٍ وأن كلّها بادية لم تكن تسكن الحضر، إلا قريشاً بمكة، ثمَّ افترقَ بنو عدنان في تهامة والحجاز(٣)، وإذا كان المشهورُ عن هُذَيْلٍ أَنَّها قبيلةٌ باديةٌ، فقد كان لها أيضاً منازِلُ في بعض القُرَى ـ كما سبق ـ وكثيراً ما نجدُ قبيلةً واحدةً تحيا

(١) المرجع السابق ٣ : ٤٢٧ والخرق: الفتى الحسن الكريم الخليقة، والعلج: الرجل الضخم.
(٢) الأغاني جـ٢٣ ص١٦٥، الخَرْق: الأرض الواسعة، والزعازع: من زعزع، أي: شديد، وزعزع الإبل: حثَّها، والمعسفون: من أعسف الرجل: سار بالليل خبط عشواء، المجدول: أراد به رأسها أو ظهرها، السِّبَطْر: الطويل، اللوح: ما لاح من النجوم التي تطلع من نحو اليمين.
(٣) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للسويدي ص١٩.

حياتين مختلفتين، وتعيشُ بين البادية والحَضَر، أو أن قسماً منها يتحضر ويسكن المَدَرَ، على حين نجدُ قسماً آخر منها بادياً في أهل الوَبَر، وقد كان هذا شأن القبيلة العربية في الجاهلية والإسلام معاً[1]. وقد اعتبر الدكتور ناصر الدين الأسد هُذَيلاً وجُهَيْنَة ونَهْداً وغيرها من القبائل التي كانت تحيا حياتين مختلفتين، فهُذَيْل كانت أقسام منها تسكنُ ضَرْعاء، وهي قرية بها قصورٌ ومنبر وحصون، وقسم آخرُ يسكن في قريتي رُهَاط والحُدَيْبيَة، وقسم يسكن في مَرِّ الظهران،وهي قريةٌ في واديها عيونٌ كثيرة، ونخيلٌ وجُمَّيْز[2].

ويرى الدكتور ناصر الدين الأسد أنَّ المقصودَ بالبادية هو ظاهرُ القرية أو ضاحيتها وما أحاط بها،وقد سَرَدَ نصوصاً واستدلّ بها على ذلك. وذكر أن كثيراً من القبائل كانوا يقطنون في هذه البوادي قريبين من الحواضر، مُطيفينَ بها متصلين بسكانها، وهم غير تلك القبائل الموغلة في الصحراء، الضاربة في الفيافي، البعيدة عن العمْران، الذين قَسَتْ قلوبُهم، وغلظتْ أكبادُهم، فوصفهم القرآنُ الكريمُ بشدَّة الكفر والنفاق، وهؤلاء هم الأعرابُ، فالبدو غير الأعراب، لأنَّ البدوَ ينزلون قريباً من المدن، ويتصلون بأهلها، ويتأثرون بهم، ولا يُبعدون عنهم، أما الحَضَرُ فهم الذين نَزَلُوا بالمدن والقُرى، واستقرُّوا فيها لا يتحولون عنها[3].

وينبغي أن نلاحظَ أن هذه الاختلافات لا تزالُ قائمةً في الجزيرة العربية حتى اليوم.

وقد ضَمِنَت البادية سلامةَ اللغة العربية عندما فسدت هذه اللغةُ في مواطن الحَضَر بسبب الاختلاط الذي كان بين العرب وغير العرب،وأصبحت البادية لذلك مدرسةً يدخلُها مَنْ أرادَ أن يتلقَّى اللغةَ الصحيحة والعربيةَ الفصيحةَ.

واشتهرت قبيلةُ هُذَيْلٍ بين العرب باللَّسَن والفصاحَة، حتى إن العربَ كانوا يرسلون أبناءَهم إليها، لينهلوا من معينها الثَّجّاج، وليتزوَّدوا من الشعر والأدب وفصيح العربية ، فرُوي أن الشافعيَّ رضي الله عنه أقامَ عند هُذَيْل مدَّةً طويلةً، فحفظ أشعارَها

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي د. ناصر الدين الأسد ص٦.

(٢) المرجع السابق ص٧.

(٣) انظر تفصيل ذلك في مصادر الشعر الجاهلي ص٥-٩.

وتذوَّق أساليبها، يقول بروكلمان: "وقدم الشافعيُّ إلى مكَّةَ وهو طفلٌ - قيل إنه كان حينئذ في السنة الثانية من عمره - وتَلَقَّى بها تعليمَه، وبدأ فيها سماعَ الحديث والأخبار، فلما بلغتْ سنُّه نحو سبع عشرة سنةً رَحَلَ إلى البادية وبقيَ بها بين أكناف بني هُذَيْلٍ، حتى بلغَ نحو عشرينَ سنةً، فأخذَ عنهم فصيحَ العربية وروى الشعرَ والأدبَ وقد روى عنه الأصمعيُّ أشعارَ هُذَيْلٍ والشَّنْفَرى في مكّةَ"(١).

والمعروفُ عن الشافعيِّ أنه كان عالماً لغوياً أديباً، وأنَّه كان بحكم عروبته وثقافته اللغوية والأدبية، وبحكم نشأته عند قبيلة هُذَيْلٍ، ودراسته لشعرها، صاحبَ بيانٍ فَخْمٍ، وتعبير جَزْلٍ، وأسلوبٍ رَفيعٍ، وعُرِفَ عنه كذلك أنَّه كان إماماً في الحفظ والرواية، وأنَّ رجالَ الأدب كانوا يأتونَه فيقرؤون عليه الشِّعْرَ فيفسِّرُه لهم، وذكر الأصمعيُّ أنه قرأ شِعْرَ هُذَيْلٍ عليه، فقد حدَّث عبد الرحمن ابن أخي الأصمعيِّ قال: قلت لعَمِّي: على مَنْ قرأتَ شِعْرَ هُذَيْلٍ؟ قال: على رجلٍ من آلِ المطلب يقالُ له ابنُ إدريس(٢).

وقد أُعْجِبَ الشافعيُّ بأشعارِ هُذَيْلٍ لنشأته في قبائلهم، ورضاهُ عن طبائعهم ولأن هُذَيْلاً - كما يقولُ الشافعيُّ نفسُه - كانت أفصحَ العرب، يقولُ الشافعيُّ في حديثه عن نفسه: فبقيتُ فيهم سبع عشرة سنةً، أرحَلُ برحيلهم، وأنزلُ بنزولهم، فلما رجعتُ إلى مَكَّةَ جعلتُ أَنْشُدُ الأشعارَ، وأذكرُ الآدابَ والأخبارَ وأيامَ العرب(٣).

والحقّ أن هُذَيْلاً قد اكتسبت هذه الصفة من الفصاحة واللَّسَن، واشتهرت بها لأنها قبيلةٌ باديةٌ، ثم لأنَّها كانت قبيلةً محافظةً، فلمْ تختلطْ بغيرها كثيراً، فضمنَ ذلك حفظَ لغتها من الفسادِ واللحن، ولذلك أصبحت مَرْجِعَ العلماء في الاستشهاد على فصيحِ العربية.

ولا شَكَّ أن البادية منبعُ الشِّعْرِ، ومولدُ البيان، فالأسبابُ الشاعرية تهيّأتْ من نشأةٍ بدوية في الصحراءِ التي تفسحُ الخيالَ، وتُلْهِبُ العاطفةَ، وتذكي الشعورَ بين قومٍ مفطورين على البلاغةِ، مفتونينَ بالفصاحةِ واللَّسَنِ، فكلُّ ذلك يُغذي الملكةَ الفطريةَ،

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٣: ٢٩٢.

(٢) المزهر للسيوطي ١/ ١٦٠.

(٣) معجم الأدباء جـ١٧ ص٢٨٤

ويفتق أكمامَ الشاعرية، يقول الأستاذ أحمد أمين: "إن البادية هي منبعُ الشعر وهي التي تُحرِّك العربيَّ، وتغذي خيالَه، وتُنْطقُ لسانَه، يشعر فيها باستقلاله وعَظَمته،لا تُرهقُه سلطةٌ ، ولا يَقيِّدُه قانونٌ، تَنْبسطُ أمامَه رقعةُ الأرض فينعَم بمنظرها،فيجيشُ صَدْرُه، ويَنْطقُ بالشِّعْرِ لسانُه، فإذا تحضَّر ذَلَّ، وعقلَتْ من لسانه قوانينُ المدنيَّة وتقاليدُ الحضارة،وحُرِم منظرَ الصحراء الجميلَ، فحُرِمَ الشِّعْرَ الجميلَ"(١).

وكان البدويُّ صاحبَ ذكاءٍ فطْريٍّ، وملاحظةٍ مستفيضةٍ، فليس غريباً أن يَتَنَبَّه البدويُّ بذكائه إلى أن المطرَ راجعٌ إلى الأرض، أي: عائدٌ إليها، وقد صَعَدَ إلى السماء منها(٢) فَلَم يخفَ ذلك على العربِ وخاصَّة شعراءَهم، فهذا أبو ذُؤَيْبٍ الهُذليُّ يقول:

سقى أُمَّ عمروٍ كلَّ آخرِ ليلةٍ ... حَناتِمُ سُودٌ ماؤُهُنَّ ثَجيجُ

شَربْنَ بماءِ البحرِ ثم ترَفَّعَتْ ... متى لُجَجٍ خُضْرٍ لهُنَّ نَئيجُ

فأبو ذُؤَيبٍ يدعو لأمِّ عمروٍ بالريِّ الذي تحمله إليها سحائبُ سودٌ غزيرةِ الماء، شَرِبَتْ من لُجَجِ البحر حتى ارتوت، ثم ارتفعتْ إلى السماء فأعادتْ ما شربَتْه من البحرِ غيثاً إلى الأرضِ تَرْتَوي منه أمُّ عَمروٍ، ومَن حولها الإنسانُ والحيوانُ.

وتمتازُ الباديةُ بأنَّها تفسحُ الخيالَ وتُغَذِّيه، وخيالُ البدوِ خيالٌ بيانيٌّ أو تفسيريٌّ قائمٌ على الاستعارَة والتشبيه والمَجاز وما إليها، وهذا النوعُ طبعي ما دامَ الشاعرُ يجدُ في هذه اللغة الحقيقية قصوراً عن تصوير الشُّعور(٣) وهو خيالٌ يتخذُ عناصرَه من البادية، فالرجلُ العظيمُ فَحْلٌ أو جَبَلٌ، والناقةُ في سرعتها كالحمارِ الوحشي، والرجلُ السريعُ كالظليم أو الحصان،والكريمُ كالبحرِ، والشجاعُ كالأسدِ والكثرة كالحَصى والرملِ،والمرأةُ كالغزالة والبقرة الوحشية. وهكذا يتخذُ خيالُهم موضوعاته الوصفية، وعناصره الخيالية من الصحراءِ والسماءِ والكواكبِ والحيوان. فالخيالُ يعتمدُ على ما يحسُّه الشاعرُ أو يراه في الباديةِ.

ولا شكَّ أنَّ الخيالَ يدلُّ على قُدْرَة فائقة لدى الشاعر،ويدلُّ كذلك على العبقرية والذكاء، فالاستعاراتُ والتشبيهاتُ والأمثالُ والكناياتُ هي أجنحةُ الخيالِ في التعبير والتصوير، ومِن المُؤكد أن: "الخيال مَلَكَةٌ خِصْبَةٌ تقدرُ على تخيُّلِ الأشياءِ وتصويرِ

---

(١) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص٢٢.

(٢) مع القرآن للأستاذ الباقوري ص٢٧٣.

(٣) محاضرات في الأدب الجاهلي د. سليمان حسن ربيع ص٦٤.

العواطف والآراء تخيّلاً وتصويراً يوضّحُ لنا نواحيَها الغامضةَ، ويعرض علينا ما فيها من أسباب الروعة والجمال عرضاً مؤثراً تحسبُه حقيقةً أو كالحقيقة الملموسة، يأخذُ الشاعرُ الأشياءَ المألوفةَ التي يراها الناسُ جميعاً، ثم يُعْملُ فيها خيالَه فيخرجُها في صورةٍ جديدةٍ لم نكنْ نَتَوهَّمُها، فليس الخيالُ دائماً مجافاةً للحقائقِ وبُعْداً عن المألوف، وقدرةً على الإغراب والإتيان بما لا يكون، بل المهمُّ أنَّه مرآةٌ تنطَبعُ فيها الصُّوَرُ فيعكسُها وقد صَفَّاها من كلِّ شائبةٍ، وأَخرجَها إخراجاً جديداً، والخيالُ خادمٌ للحقيقة، وغايتُهُ تصويرُ ما حُجِبَ عنّا من حقائقِ الوجود"(١)، ولم يَترُكِ الهذليون مَظهراً من مظاهرِ الحياة في الصحراء وقَعَ عليه بَصَرُهم إلاّ سَجَّلوه في أشعارِهم حتى الأشياء الصغيرة التي قد تبدُو قليلةَ الأهمية لا تلْفتُ النظرَ، ولا تستحقُّ التسجيلَ، على نحو ما نرى في هذه الأبيات وهي للمُتَنَخِّلِ يتحدثُ فيها عن الماءِ الذي وَرَدَهُ وما كانَ حَولَه من البعوض، يقول فيها:

كأنَّ وَغَى الخَمُوشِ بجانِبَيْهِ ... وَغَى رَكْبٍ، أُمَيْم، ذَوي هِياطِ (٢)

كأنَّ مَزاحِفَ الحيَّاتِ فيه ... قُبَيْلَ الصبحِ آثارُ السِّياطِ

شَرِبْتُ بِجَمِّهِ وصَدَرْتُ عنهُ ... وأبيضُ صارِمٌ ذَكَرٌ إباطِي (٣)

فلم يَرقْ للشاعرِ أن يشبِّهَ موردَ الماءِ وما حولَه من البعوضِ إلا بالركب أو القافلة وما يصحبُها من الصياح والجلَبةِ والمجادلة، فهو تشبيهٌ من صميم البادية، ثم علينا أن نلاحظَ ما في البيتِ الثاني من جمالٍ، فالشاعرُ يشبِّه آثارَ زحفِ الحيّاتِ في ذلك

---

(١) قصة الأدب في الحجازِ د. محمد عبد المنعم خفاجي ص٣٥٣.

(٢) ورواية اللسان – خمش وزيط ووغى: «ذوى زياط» وعقب عليها ابن برى بأن صحتها في شعر هُذيل: «أولى هياط» وهي رواية تاج العروس أيضاً.

وروى الأزهري البيتَ هكذا:

كأن وغى الخموش بجانبيه ... مآتم يلتدمْنَ على قتيل

وبرواية اللسان ورد في الحيوان (٥: ١٢٣) مقاييس اللغة (٢: ٢١٩) وتوجد الأبيات برواياتها في شرح الحماسة والتعليق عليه – راجع في ذلك كله كتاب التهذيب ٧: ٩٥، ٩٦ بتحقيق الدكتور عبد السلام سرحان: (هامش).

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ٣ ص١٢٧٢. الخموش: البَعوض، الهياط: الصياح والمجادلة، الوغى: صوتُ الحرب، جَمُّه: ما اجتمع في البئر من الماء، والجَمَّةُ: معظم الماء، إباطي: يقول قد تأبط هذا السيفَ.

المكانَ بالآثارِ الباقيةِ نتيجةَ الضَّرْب بالسِّياطِ، وقد ذكر السُّكَّريُّ في هذا البيتِ "أنه بيتُ القصيد وأنه أحسن ما وصف"(١).

وهذا أميةُ بن أبي عائذ يشبِّه الليلَ بإبلٍ عليها أخبيةٌ سُودٌ، فيقولُ: كأنَّ بقايا الليلِ بُخْتٌ جُلِّلْنَ مَظَالَّ سُوداً مِن المَظَالِّ التي تَتَّخذُها الأعرابُ، فنراه يقول:

ولَيْـــلاً كـــأنَّ أفــانينَهُ　　　صَـراصِـرُ جُلِّلْنَ دُهْمَ المظَالي (٢)

ونراهم قد وصفوا البحرَ والتيارَ، إلا أن تشبيهاتِهم مستمدةٌ من صُورِ الباديةِ فهذا ابنُ بَرَّاق الهذَليُّ، يصف البحرَ والتيارَ، ويستخلص عناصرَ التشبيه من البادية فيشبه قواذفَ التياراتِ المتلاحقةِ بالنعاجِ اللائي يرتمين إلى جانب نعاجٍ وهكذا فيقول:

ألا هَلْ لِلْهُـمُـومِ مِنَ انْفِـراجِ　　　وهَلْ أنا مِن رُكوبِ البَحْرِ ناجِي
أكُلَّ عَـشِـيَّـةٍ زَوْراءُ تَهْـوى　　　بِنا في مُظْلِمِ الغَمَراتِ داجِي
يَشُقُّ الماءَ كَلْكَلُهَـا مُلِحّاً　　　على ثَبَجٍ مِن الملحِ الأُجـاجِ
كـأنَّ قـواذِفَ التيـارِ مِنهُ　　　نِعـاجٌ يَرتَعِينَ إلى نِعـاجِ (٣)

وكانت حياةُ البادية تستلزمُ الاعتمادَ على النفسِ، وتقتضي الشجاعةَ والبطولةَ والإقدامَ، فهي حياةٌ كلُّها فروسيةٌ،فلا يمكنُ لأحدِهم أن يخرجَ وهو أعزلُ من السلاحِ وبعبارةٍ أدقّ كانوا لا يقضون أوقاتَهم بغيرِ سلاحٍ، فلذلك نجدُ ذكرَ السلاحِ في الكثيرِ من أشعارِهم، حتى في الرثاء، فهذا أبو خِراشٍ يرثي بعضَ أخوته، ونراه في رثائه ينكرُ أن يكونوا عُزْلاً من السلاح، فكان مِنَ العارِ عندهم أن يكونَ العربيّ في الباديةِ بغيرِ سلاحٍ، فنراه يقول:

فـقـدْتُ بنِي لُبْنَى فلمّـا فَـقَـدْتُهم　　　صبرتُ ولم أَقْطَعْ عليهم أَبَاجِلِي
حِسانُ الوجوهِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُم　　　كريمٌ نَثاهُمْ غيـرُ لُفٍّ مَعـاذِلِ

---

(١) المرجع السابق الصفحة ١٢٧٣.
(٢) المرجع نفسه ٢/٥١٢. أفانينه: نواحيه، صراصر: إبل من الشام يقال لها «الصَّرْصَرانيَّة».
(٣) المرجع نفسه جـ٢ ص٨٧٨، زوراء: سفينة لاعْوِجَاجِها.

رِمـاحٌ مِنْ الخَطِّيِّ زُرْقٌ نِصَـالُهـا حِـدادٌ أعـالِيـهـا شِـدَادُ الأَسـافِلِ [1]

وقد علمتهم البادية الصبرَ وتحمّلَ الشدائد، لأنّها حياةٌ لا بُدَّ معها من الاعتماد على النفس، ولا بدّ معها مِنْ تحمُّلِ المشاقِّ في جميع مجالات الحياة، فهذا أبو خِراشٍ - الذي أقفر من الزادِ يوماً فجاع جوعاً شديداً - مَرَّ بامرأةٍ من هُذَيْلٍ، فأمرتْ له بطعامٍ فما كان منه إلا أن ذهب وتركَ الطعامَ، لأنَّه لما شَمَّ رائحةَ الطعامِ سالَ لعابُهُ، وقرقرَ بطنُه، فحرمَ نفسَه من ذلك الطعام. روى صاحبُ الأغاني في هذه الحادثة: أنَّ أبا خِراش الهُذَلي قد أقفر من الزادِ أياماً، ثم مَرَّ بامرأةٍ من هُذَيْلٍ، وكانت جَزْلَةً شريفةً، فأمرت له بشاة فذُبحت وشُويت، فلما وجدَ بطنُه ريحَ الطعامِ قرقرَ، فضرب بيده على بطنه وقال: إنك لتقرقر لرائحة الطعام والله لا طعمت منه شيئاً ثم قال: يا ربة البيت، هل عندك شيء مِنْ صَبِرٍ أو مُرٍّ؟ قالت: تصنع به ماذا؟ قال: أريده، فأتته منه بشيء فاقتمحه[2] ثم أهوى إلى بعيره فركبه، فناشدته المرأة فأبى، فقالت له: يا هذا، هل رأيت بأساً أو أنكرت شيئاً؟ قال: لا والله، ثم مضى وأنشأ يقول:

وإنِّي لأَثْوِي الجـوعَ حـتَّى يَمَلَّنِي فأَحْيا ولَمْ تَدْنَسْ ثيابي ولا جِرْمِي
وأَصْطَبِحُ الماءَ القَـراحَ فـأكـتـفِي إذا الزادُ أَضْـحَى لِلْمُـزَلَّجِ ذا طَعْمِ
أَرُدُّ شُـجَـاعَ البطنِ قَـدْ تَعْلَمِـينَهُ وأُوثِرُ غـيـرِي من عـيـالِكِ بالطُّعْمِ
مـخـافَـةَ أن أَحْـيَـا بِرَغْمٍ وذِلَّةٍ فَلَلْمَوتُ خيرٌ من حياةٍ على رَغْمِ [3]

فنرى أنه لم يسمحْ لنفسه أن يقرقر بطنُه من الجوع، ولعله كان يرى أنَّ ذلك نوعٌ من الخفة، وأنه يتنافى مع الرجولة والصبر، وهكذا كانت حياتُهم في البادية كلُّها خشونةٌ، وكلُّها صَبْرٌ واحتمالٌ لصنوفِ الشدائد، والشدائدُ محَكُّ الرجال.

والحقّ أنَّهم كانوا في البادية يواجهون الصِّعابَ والمهالكَ والضيقَ والضَّنْكَ. يقول الجاحظ: " وقد يصيبُ القوم في باديتهم ومواضعهم من الجهدِ ما لم يُسمعْ به في أمةٍ

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١٢٣. بنو لُبْنى: إخوته، وضربَهم مثلاً، والأبْجَل: عِرْق غليظ في الرِّجل. طيّب حجزاتهم، أي: هم أعفاء. الألفّ: الثقيل، والأعزل: الذي لا سلاحَ معه. زرق: بيض، والنصال: الأسنّة.

(٢) اقتمحه: سفه أو أخذه في راحته فلطمه.

(٣) الأغاني ٢١-٢٣٨. كتاب شرح أشعار الهذليين جـ٣ ص١١٩٩-١٢٠٠.

من الأُمَم،ولا في ناحيةٍ من النواحي. وإنَّ أحدَهم ليجوعُ حتى يَشُدَّ على بطنه الحجارةَ،وحتى تعتصم بشِدَّة مَعاقِد الإزار، وَيَنْزِع عِمامَتَه مِن رأسه فيشدّ بها بطنَه(١).

وتحدَّثَ الشعراءُ الهذليون كثيراً عن البادية، واعتنوا بها عنايةً تامَّةً، فكان المنظرُ الصحراويُّ مصدراً خِصْباً للوحي والإلهام،وقد عشقوا الصحراءَ بما فيها من مناظرَ جميلةٍ فاتنة، وبما لها من أسرارٍ وأعاجيبَ، فمنظرُ الهاجرة المُحرقة ومنظرُ الليلِ الموحشِ، ثم مناظرُ صنوفِ الحيواناتِ في البادية، كلُّ ذلك جَذَبَهم وشَدَّهُم إلى الوصفِ والتحدُّثِ والتسجيلِ في أشعارِهم الخالدة.

والحقّ أنّ مَن يتتبع وصفَ الصحراء والحيوان في أشعارهم يُخيَّلُ إليه أنهم لم يتركوا مظهراً من مظاهر الحياة في الصحراء وقع عليه بصرهم إلا سَجَّلوه في أشعارهم حتى الأشياء الصغيرة التي قد تبدو قليلةَ الأهمية، أو التي لا تَلفتُ النظرَ ولا تستحقّ التسجيلَ فقد سجَّلوها واهتموا بها في صورهم الشعرية ولوحاتهم الفنية.

وقد عشقوا الصحراء وأَحبّوها،وفُتنوا بها،وكان إحساسُهم بها عميقاً، فعاشوا فيها مُدْنَفينَ بها ، مَشغوفينَ بحبِّها،يفتنُهم سحرُها الغامضُ،وسرُّها المجهولُ، وسجلوا في قصائدهم وأشعارهم أروعَ صورةٍ للبادية وفيافيها،وعاشتِ الصحراءُ في أعماقهم محبوبَةً آسرَةً، وقصيدةً خالدةً،ولذلك انتشرَتْ لوحاتُ الصحراء في شعرهم انتشاراً واسعاً، وتعدَّدَت مناظرُها وأوضاعها تعدداً لا نظيرَ له عند غيرهم، وهي لوحات لا تصوِّر البادية فحسب، ولكنها تصوِّر أيضاً تَعَشُّقَهم لها وافتتانَهم بها، فهم لا يتحدثون عنها حديثَ من يريد وصفَها، وتسجيلَ مشاهدها، ولكن حديثَ مَن يريد أن يُفْرِغَ طاقةً ضخمةً من العواطف التي يَحملُها لها في نفسه، عواطفِ الحُبِّ والفتنة والهُيام والغَرام.

ولم يقفَ الهُذَليون عند مظاهر الصحراء الصّامتَة وحدَها، ولكنهم تجاوزوها إلى مظاهرها الحيَّة ، فوصفوا الإبلَ وصفاً جميلاً، ووقفوا طويلاً عند حيوانها الشارد في أعماقها، والساري على رمالها، كالظباء وصغارها، وقطعان الحُمُر والبقر الوحشيَّة، والذئاب والثعالب والضباع،كما صَوَّروا ـ في أدبهم ـ النّعامَ والحمامَ والنسورَ والعقبانَ،ثم الحيَّاتِ والزواحفَ الأخرى، مما يَدُلّ على دربتهم الواسعة،ومهارتهم

(١) البخلاء للجاحظ ص٢١٩ – ط٤ –دار المعارف– تحقيق الحاجري.

الفائقة، وخبرتهم الدقيقة بحياة الصحراء، وهي خبرة اكتسبوها من حياتهم فيها من ناحيةٍ، ثم من رحلاتهم المتعددة في أعماقها،وتنقلاتهم بين أفنائها من ناحيةٍ أخرى.

ومعروفٌ أن الرعيّ كان قائماً في البوادي، وكان يأخذ به كثيرٌ من القبائل ومنها هُذَيْل،وكانت طبيعةُ البادية تقتضي هذا النوعَ من الحياة، وخاصَّة في تلك الأماكن التي يتعذَّر فيها الأخذُ بأي نشاطٍ اقتصادي سواه، وكانت ثروة البدوي تقدَّر في امتلاك القطعان،وخاصّة الإبل التي كانت تحتلّ المركزَ الأولَ وهي مقياسُ غناهم،فكانت تحدّد مركزَ الفرد في مجتمعه، ومكانته عند قبيلته وبني جلدته،وقد ذكر الأصمعيُّ أنهم كانوا أصحابَ جمال[1]. وعلى طول ديوانهم الضخم تلقانا صورٌ للإبلِ، لا يمكن أن تكون صادرةً إلا عن عاطفة حُبٍّ تملأُ عليهم قلوبَهم،فهذا أبو ذؤيب يتناول النوقَ في شِعْرِه كثيراً،فنراه يذكرُ النوقَ ويفتخرُ بنَحْرِها إذا أمحلَ الناسُ فيقول:

فإنَّك لو ساءَلْتِ عنّا فَتُخْبَري ... إذا البُزْلُ راحَتْ لا تَدرُّ عِشَارُهَا

لأُنْبِئْتِ أنّا نَجْتَدي الحَمْدَ إنَّما ... تَكَلَّفُهُ من النُّفوسِ خِيارُها

لنا صِرَمٌ يُنْحَرْنَ في كلِّ شَتْوَةٍ ... إذا ما سَماءُ الناسِ قَلَّ قِطارُها [2]

وفي موضعٍ آخر يشبِّه الناقَة بالصخرة في صلابتها وقوة بأسها، ويصفها بأنها مُشَمِّرة طويلة القوائم مما يدل على سرعتها فيقول:

فما فَضْلَةٌ من أَذْرِعاتٍ هَوَتْ بها ... مُذَكَّرَةٌ عَنْسٌ كَهادِيَةِ الضَّحْلِ

سُلافَةُ راحٍ ضُمِّنَتْها إداوَةٌ ... مُقَبَّرَةٌ رِدْفٌ لِمُؤْخَرَةِ الرَّحْلِ

تَزَوَّدَها من أهلِ بُصْرى وَغَزَّةٍ ... على جَسْرَةٍ مَرْفُوعَةِ الذَّيْلِ والكَفْلِ

فوافَي بها عُسْفانَ ثم أتي بها ... مَجَنَّةَ تَصفُو في القِلالِ ولا تَغْلي

وراحَ بها من ذي المَجازِ عَشِيَّةً ... يُبادِرُ أُولَى السَّابقاتِ إلى الحَبْلِ

---

(١) ديوان الهذليين ١/١٧.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ١ ص٧٧. العشار: واحدَها عُشَراء وهي التي أتى عليها عشرة أشهرٍ من حملها. لا تَدرُّ عشارُها، أي: من شدة البرد، نجتدي: نطلب، أي: نتَّخذ الحمدَ جَداً وفضلاً. الصِّرْمة من الإبل: القطعة ما بين العشرة إلى العشرين.

فَجِئْنَ وجاءَتْ بينهُنَّ وإنَّهُ ... ليَمْسَحُ ذِفْراهَا تَزَغُّمُ كالفَحْلِ

فجاء بها كيْما يُوَفِّيَ حَجَّهُ ... نديمُ كِرامٍ غيرُ نِكْسٍ ولا وَغْلِ (١)

وهذا مُلَيْح بنُ الحَكَمِ القِرْديُّ يصفُ الإبلَ وصفاً جميلاً،ويشبِّهها بالسُّفُنِ فيقول:

إنَّ الخَليطَ الذي ما دونَهُ أَحَدُ ... عندي ولو لم يكن يَدْري بما أَجِدُ

لم أَخْشَ بينَهُمُ والدّارُ إنْ جَمَعتْ ... يوماً مُبَدِّدَةٌ والقُرْبُ والبُعُدُ

حتى رأيْتُهُمُ تَعْلُو رِحالُهُمُ ... مَلْمومَةً فوقَهُنَّ النَّيُّ واللَّبَدُ

سُدْساً وبُزْلاً إذا ما قام راحِلُها ... تَحَصَّنَتْ بِشَباً أطرافُهُ غَرِدُ

فَقَلَّ ما لبثوا حتى استَمرَّ بِهِمْ ... بَيْنٌ كَعَطِّ الرِّداءِ العَصْبِ مُنْجَرِدُ

تُحْدَى بهم راجفاتُ الهَمِّ مُجْفَرَةٌ ... غُلْبٌ يَشُدُّ لها أَثْباجَهَا القَحَدُ

مُصْطَفَّةٌ كاصْطِفافِ الفُلْكِ لا لُجُنٌ ... تَحْتَ السياطِ ولا مَشْعُوفَةٌ شُرُدُ

كأنَّ ما فوقَها مِمّا عُلِينَ به ... دماءُ أَجْوافِ بُدْنٍ لونُها جَسِدُ

فالعيرُ تحملُ أشواقاً مُضعَّفَةً ... والعينُ يُكْحَلُ فيها الصَّابُ والرَّمَدُ

وقلتُ وَهْيَ بعيدٌ واستمرَّ بهمْ ... آلٌ يُعَمِّمُهُمْ والقَرْقَرُ الجَرَدُ

بَحْرِيَّةٌ فَوْقَ غَمْرِ الماءِ غَادِيَةٌ ... يَزْفِي كَلاكِلَهُنَّ الموجُ والزَّبَدُ

ثم يصف سيرها واتزانها فيه،وأنها في سيرها تلزم الموكب،ثُمَّ يشبِّه سيرَها بمشي النعامة لخفتها فيقول:

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ /٩٣. مذكرة: ناقة خِلْقَتُها خِلْقَةُ الفَحْل، عَنْس: شديدة صُلْبة، الفَضْلة: فَضْلَةٌ فَضِلَتْ من خَمْرٍ عند تاجرها، هَوَتْ بها، أي: سارت. هادية الضَّحْل: صخرة تكون في بطن الماء يمرُ الماءُ عليها، والضَّحْل: الماء الرقيق، مرفوعة الذيل والكفل، يريد أن ذيلَها وكفْلَها مشرفان ولا ذَيْلَ للناقة فالذيلُ غيرُ مُرادٍ هنا وإنما هو مثل، والكفل: كساء يكون على عَجُز البعير فيركب عليه. جَسْرَة: جسيمة، وافى بها، أي: أتى بها، القلال: الحَبَبَة والجِرار، الحَبْل: حَبْل عرفة، جئن وجاءت، أي: جئن الإبل وجاءت الناقة بين النوق، ذفراها: هو الناتئ في القفا من الأذنين. تَزَغَّم: تَصيح وتُصوِّتُ من نشاطها، النِّكْس: الضعيف، الوَغْل: الذي يدخل على القوم يشربون ولم يَدْعوه.

لا تُسْتَزادُ ولا تَثْني بِراكِبِها إذا تفاضَلَت العيديَّةُ النُّجُدُ
تَخْدي إذا ما ظلامُ الليلِ أمْكَنَها من السُّرَى وفَلاةٌ شَحْشَحٌ جَرَدُ
خَدْيَ النَّعامَةِ راحَتْ وَهْيَ خائِفَةٌ فَرَفَّعَتْ زِفَّهَا مَشْعُوفَةً تَخِدُ
إذا المطايا غداةَ الرِّبْعِ أتْعَبَها رَمْلٌ تَمُدُّ له أعناقَهَا صَعَدُ
وأرْهَقَتْهُنَّ منها سِيرَةٌ نَكَظاً تكادُ منها ذِراعُ العَنْسِ تَنْقَصِدُ [1]

ونراه في إحدى قصائده في الغزل،يأخذ في وصفِ الطَّريقِ الذي سارَ فيه إلى صاحبته ويتحدث عن الإبلِ فيقول:

ومُسْتَحْلِسِ الأَرْطَى مَخْوفٍ به الرَّدى بعيدِ المَدَى للعيس دَفْنِ المَناهِلِ
قطعتُ إذا ما الليلُ أدْنَى رِواقَهُ بِمُلْتَهِمِ الصحراء جَوْنِ الغَياطِلِ
بِعيديَّةٍ كالفَحْلِ أو ماطِلِيَّةٍ لَحُوقِ التَّوالي ذات جِدٍّ وَباطِلِ
لَجوُجٍ إذا اسْتَلْجَجْتَها ذات رَيِّعٍ إذا خُودِعَتْ زَهْوَ الخَرِيعِ المُخايِلِ
مِنَ الخُرْسِ إلا أَنْ تَرُدَّ بُغامَها إلى طَيٍّ مَثْنِيٍّ الحَصِيرَيْنِ قافِلِ [2]

---

(١) المرجع نفسه ٣/١٠١٣ مَلْمُومَة: إبلٌ سِمان، النَّيُّ: الشحم، اللِّبَد: الوَبَر، الشَّبا: أراد حدَّةَ الأنياب، غَرِد: مُصَوِّتٌ، يريد أنها تحصَّنَت بصَريفها وذلك أنه إذا سُمِعَ صَريفُها عُلم أنّ الإبل قُطُمٌ والفَحْلُ يَصْرِف قَطَماً والناقة تَصْرِف كَلالاً، مُنْجرد: ذاهب، عَطٌّ: شَقٌّ، راجفات: متحركات الرؤوس في مسيرها، مُجْفَرَةٌ: عظامُ الجُنوب، غُلْب: غلاظُ الرقاب، الثَّبَج: الجَنْبُ والقَحْد: الأسنمة واحدتها قَحَدة، اللجُونْ: الثقيلة البَليدة، مَشْعُوفَة: والهة إلى أوطانها وإلى صواحبها، شُرُد: ذاهبة، آل: سراب، يُعَمِّمُهم: يكسوهم ويُلبِسُهم، القَرْقَر: الأرض المستوية، الجَرَد: الذي لا نبتَ فيه، بَحْرية: سفن شَبَّه الإبلَ بها، يَزْفي: يسوق، لا تَثْني براكبها: لا تُؤَخِّره حتى يَنْثَنُوا عليه، العيديّة: الإبل المنسوبة إلى (عَيْدانَ بن مَهْرَةَ) النُّجود: الماضية. الخَديان: ضَرْب من السير، وَشَحْشَح: فلاة واسعة بعيدة، مَحْلٌ لا نَبْتَ فيها: جَرَدٌ: جرداء، أرهَقَتْهُن: أدركَتْهُنَّ، نَكَظاً: عَجَلَة شديدة، تَنْقَصد: تنكسر.

(٢) المرجع نفسه ٣/١٠٢٦ استحْلَس النبتُ: إذا غَطّى الأرضَ من كثرته، وهي أرض كثيرة الأرْطَى، الرَّدَى: الهلاك، المدَى: الغاية، العيسُ: الإبلُ، المناهل: المياه، مُلْتَهم الصحراء: يعني الليلَ، الغياطل: الظُّلَم الشديدة واحدتها غَيْطَلة: العيدية: الإبل، التوالي: أرجلُها، مَاطليَّة: منسوبةٌ يعني إبل منسوبة إلى مَاطِل فَحْل من كرام الإبل، ذاتُ رَيِّع: تَريعُ في العَدْوِ، وتَرْجع في المشي. المخايل: المُفاخر، يريد أن الطرف يستخفها في السير حتى كأنها خَرِيع: وهي الفاجرة. من الخرس إلا أنْ تُرَدّ بُغامَها: يعني لا ترغوَ. الحَصِيران: الجَنْبان، قافلٌ: ضامِر.

وهذا ساعدة بن جُؤَيَّةَ يشبّه الإبلَ بالسّفنِ فيقول:

تَحَمَّلْنَ مِنْ ذاتِ السُّلَيْمِ كأنَّها ... سَفائنُ يَمٍّ تَنْتَحيها دَبُورُها [1]

فلما كانت الناقةُ سفينة الصحراء في البادية، فلا عجب أن يهتمَّ بها الهذليون ويصفوها ويشبهوها بتشبيهاتٍ كثيرةٍ تناسب بيئتَهم البدوية، فهذا أُسامة بن الحارث يحدثنا عن الإبل، ويصف ناقتَه بأن يديها إذا أرقلت تبدو كأنها يدا امرأة في صدرها "ضبان" أي حِقْدان تعرو سبابا، أي تُسَابٌ أخرى، ثم يشبه الناقة بحمار يقاتل الذباب عن جنبيه فيقول:

أقامُوا صُدُورَ مُسِنَّاتِها ... بَواذِخَ يَعْتَسِرُونَ الصِّعابَا

مِنَ المُضَرِيَّاتِ لا كَزَّةً ... لَجُوناً ولا راشَةَ الظَّهْرِ نَابَا

كأنَّ يَدَيْها إذا أَرْقَلَتْ ... يَدا ذاتِ ضَبَّيْنِ تَعْرُو سِبابَا

كأصْحَمَ فَرْدٍ على عانَةٍ ... يُقاتِلُ عن طُرَّتَيْهِ الذبابَا [2]

وأظنُ أنَّنا أطلنا في الحديث عن النَّاقَة، فلنذكر شيئاً عن وصفهم بقية الحيوان في البادية.

فهذا الأعلمُ يصفُ الضَّبُعَ بأنّها غليظةٌ، ثم يذكر أنَّ الخُروقَ التي فوقَ دُبُرِها ثمانيةٌ، وقد نظرَ إلى زِماعِها وهي الشعرات الجافة في مُؤخَّر رِجلها، فذكر أن لها فوقه وَشْماً كأنَّه الخَلْخال، وتراه يبعد في وصفها فيذكر أن هذه الضَّبُعَ ليست ككلِّ الضِّباع، وإنما هي عظيمةُ الرأسِ، ولها في أسفلِ بطنها جِرابٌ كجِرابِ قَضيبِ البعير، يريد أنّها خُنْثَى، وذكر بعضهم أنه يريدُ أن لها ما للذكر والأنثى فنراه يقول:

---

(١) المرجع نفسه ٣/ ١١٧٥.

(٢) المرجع نفسه ٣/ ١٢٩١ مُسنّات، يعني الإبل، بواذخ: مُشرِفات، يعتسرون: يركبون، مُضريات: منسوبة إلى مُضَر، لَجُونٌ: بَطيئة، الكَزَّة: التي ليست بوَساع في السير، وفي البيت الثالث يقول: كأنَّ يديها إذا أرقلت يدا امرأة في صَدْرِها «ضبّان» أي حقْدان، تَعرو سبابا: أي: تُسابٌ أخرى، عن طُرَّتَيْه: عن جَنْبَيْهِ، الأصحم: الاسم من الصُّحْمَة، أي: سَواد في صُفْرة.

عَشَنْزَرَةٌ جَواعِرُها ثَمانٍ فُوَيْقَ زِماعِها خَدَمٌ حُجُولُ
تراها الضُّبْعُ أعْظَمَهُنَّ رأساً جُراهِمَةٌ لها حِرَةٌ وَثِيلُ (١)

وفي موضعٍ آخرَ يحدثنا عن الضَّبُعِ وأولادها، ويشبّه آذانَها بالمغارف، لأنها آذان قصيرة عريضة، يقول:

وتَجُرُّ مُجرِيَةٌ لها لَحْمِي إلى أَجْرٍ حَواشِبْ
سُودٍ سَحالِيلٍ كأنَّ جُلودَهُنَّ ثيابُ راهِبْ
آذانُهُنَّ إذا احْتَضَرْنَ فَرِيسَةً مِثْلُ المَذانِبْ
يَنْزِعْنَ جِلْدَ المَرءِ نزْعَ القَيْنِ أخلاقَ المذاهِبْ (٢)

وهذا أبو كبير يصف ذئبةً وهي تمضي متلفتة كتلفت الغضبان فيقول:

أَخْرَجْتُ منها سِلْقَةً مَهْزُولَةً عَجْفَاءَ يَبْرُقُ نابُها كالمِعْوَلِ
فَزَجَرْتُها فتلفَّتَتْ إذْ رُعْتُها كَتَلَفُّتِ الغضبانِ سُبَّ الأَقْبَلِ (٣)

وهنالك أُرجوزة لَعمْرو ذي الكلب يصفُ فيها الذئبَ الجائعَ ويرسم له صورةً دقيقةً مُكْتَمِلَةَ التفاصيلِ، واضحةَ الملامح، فيتحدث فيها عن الغنمِ وعن الذئبِ الذي جاء بسرعة من عُلاوَة الريح. يقول:

يا ليتَ شِعْرِي عَنْكَ والأمْرُ عَمَمْ
هل جاءَ كَعْبٌ عَنْكَ مِن بَينِ النَّسَمْ

---

(١) المرجع نفسه ١ / ٣٢٢ عَشَنْزَرَة: غليظةٌ مُسنَّة، يريد الضَّبُعَ، جواعِرُها ثَمان: يقال إن للضبع خُروقاً كثيرةً، الزِّمَعَة: التي خَلْفَ الظِّلْفِ مِثْلُ الزيتونة، خَدَم، واحدها خَدَمَة وهي مثل الخَلْخال، لون يخالف سائرَ لونَ رِجْلها، حُجُول: الحِجْل: الخَلخَال، جُراهِمة: مُغْتَلِمة لها حِرَة وثيلُ يقال إنها خُنْثَى، والثيل: جراب قضيب البعير، وقد جعل للضبع ثيلاً.

(٢) المرجع نفسه ١ / ٣١٤. مُجْرِية: ضَبُعٌ ذات جِراء، إلى أَجْرٍ: جمع جِرْوٍ، وحَواشب: مُنتفخات البطون، الأجواف، قِصار، السحاليل: واحدها سِحْلالٌ، وهي العظامُ البطون، المذانبُ: المغارف والواحدة مذْنَبَة، المذاهب: أخلَّةُ السيوف، القَين: الحدّاد.

(٣) المرجع نفسه ٣ / ١٠٧٧، سَلْقَةٌ: ذئبَةٌ والذكر سَلْق، عَجْفاء: مهزولةٌ، كالمِعْول: يريد حديدَةَ النَّاب فكأنه طَرَفُ مِعْوَل، إذا رُعْتُها: يعني الذئبة أفزعْتُها، يقول: كتلفتِ الغضبانِ الأقبلِ سُبّ، فقدَّم وأخَّر.

مـــــا صنَعَ اليـــومَ أُوَيْسُ في الغَنَمْ

صُبَّ لهـــــا في الرِّيحِ مِـــرِّيحٌ أَشَمُّ

ثم يصفُ الذئبَ وكيف اختار من الغنم لَجْبَةً وهي التي أتت عليها أربعةُ أشهر من ولادِها فخفَّ لبنُها يعني ولّى لبنُها فيقول:

فـاعْـتـامَ منها لَجْـبَـةً غـيْـرَ قَـزَمْ

حـــــاشكَـةَ الدِّرَّةِ ورَهاءَ الـرَّخَـمْ

فـجـئـتُ لا يشْـتَـدُّ شَـدِّي ذُو قَـدَمْ

وفي الشِّـمـالِ سَـمْـحَـةٌ مِن النَّشَمْ

وفي آخر أرجوزته نراهُ يُقسِم على قَتْلِه فيقول: لئن رَمَيْتُ هذا الذئبَ مِن بعيد أو قريبٍ لأقتلَنَّه فنراه يقول:

قَـدْ كُنْتُ أقْـسَـمْتُ فَـثَنَّيْتُ القَـسَمْ

لَـئِـنْ نَـأَيْـتُ أو رَمَـــــيْتُ مِن أَمَمْ

لأَخْـــضِـــبَنْ بَعْـضَكَ مِن بعضٍ بِدَمْ(١)

وهذا صَخْرُ الغَيِّ يعرض للنَّمِرِ في مشيته حين تهب عليه الرياح الباردة، حيث يقشعر وينقبض، فيقول:

ومـــــاءٍ وَرَدْتُ عـلـى زَوْرَةٍ كَـمَشْيِ السَّبَنْتَى يَراحُ الشَّـفِيفَا (٢)

وهذا أبو ذؤيب يتحدَّث عن الخيلِ ويشبهها في سرعتها الشديدة بالعِقْبان فيقول:

---

(١) المرجع نفسه ٢/٥٧٥، عَمَم: عامٌّ، النَّسَم: الناس، أويس: الذئب ويسمّى أوْساً كذلك، مرِّيح: من المَرَح، اعتامَ الذئبُ: اختارَ من الغنم، لَجْبَة: هي التي أتت عليها أربعة أشهر من ولادها فخفَّ لبنُها، القزم: اللئيم من كل شيء، حاشكَة: حافلٌ، ورَهاء: كأنها مجنونة، الرَّخَم: المَحبَّة؛ فإذا أحبَّتْ ولدَها فكأنها مجنونة من شدَّة حُبِّها له، ورميتُ من أَمَمْ،أي: من قَصْدٍ والأمم أيضاً: القُرْب، يقول: ما كان غير بعيد ولا قريب بعد ذلك.

(٢) المرجع نفسه ١/٣٠٠، زَوْرَة: ازورار، السَّبَنْتَى: النَّمر وهو اسمٌ من أسمائه، يَراح: يجدُ الريحَ، الشفِيف: البَرْدُ، فهذا مُزْوَرٌّ يمشي في جانبِ النَمِرِ الذي تحرَّف فلم ينبسط في المضيّ.

وتُبلي الأُلَى يَسْتَلئمُون على الأُلَى تَراهُنَّ يَوْمَ الرَّوْعِ كـالحـدإِ القُـبْلِ
فـهن كـعقبـانِ الشُّرَيْفِ جَوانِحٌ وهُمْ فَوْقَها مُسْتَلْئمُو حَلَقِ الجَدْلِ
منايا يُقَـرِّبْنَ الحُـتُـوفَ لأهلِهـا قَديماً ويَسْتَـمْـتِعْنَ بالأَنَسِ الجِبْلِ (١)

وهذا مُلَيْحٌ القِرْدِيُّ يذكر في قصيدةٍ له، وهي كلُّها غَزَلٌ ساذَجٌ يمثل حياةَ البادية وحيوانها، فيذكر في بعض أبياته الظِّباءَ والغربان فيقول:

غَـداةَ جَـرَتْ لنا بفِراقِ سُعْدَى ظِبـاءُ الجِـزْعِ سـانِحَـةً تَعِـيـرُ
ظِبـاءٌ غَـيـرُ سـاكنةٍ وَحُمٌّ الـ خَوافي حَتْمُهُا عَجِلٌ عَسِيرُ (٢)

فلما عاشوا في البادية يحملون لها طاقات هائلةً من الحُبِّ والفتنةِ والشَّغَفِ، دفَعهم ذلك إلى رسم تلك اللوحاتِ الرائعةَ لكلٍّ ما كانوا يرونه حولَهم في البادية. ولكن الصحراء لم تكن في أعماقهم طبيعةً صامتةً فحسب - وإنما كانت أيضاً طبيعةً حيَّةً متحركةً، تتمثل في تلك الصُّوَر المتحركة من الحيوانات التي كانوا يرونها في الصحراء سارحةً فوق رمالها أثناءَ رحلاتهم وتنقلاتهم بين أفناء البادية، ولا بأس أن نعرضَ هنا لما يقوله ساعدة بن جُؤَيَّه في وصف الضَّبُعِ، فقد وصف الضَّبُعَ وهي تمشي في هدوء الليل مشياً وئيداً، فكانت مُثْقَلَةً ومُسنَّةً،وهي تقضي الليلَ بحثاً عن حمارٍ مات أو إنسان قُتِلَ، ثم يشبِّه مشيَها وهي تَدَلَّجُ في هدوء الليل بمشي الرجلِ الأَقْبَل، أي :الأحول الذي يسير بالليل، وكأنه يتلفت ويدير عينيه،ثم وصفَها حين مرَّت بين طُرُقِ المقابرِ ثم فتحت ما بين يدَيْها وأخذت تنبش التراب فيقول:

إذا مـا زارَ مُـجْنَأَةً عليْـهَـا ثِقـالُ الصَّـخْـرِ والخَشَبُ القَطِيلُ
وَغُـودِرَ ثاوياً وتَـأَوَّبَتْـهُ مُـذَرَّعَـةٌ أُمَـيْمَ لهَـا فَلِيلُ

(١) المرجع نفسه ١ / ٩٢ يستلئمون: يَلبسون: اللأْمةَ وهي الدّرْعُ، كالحدإِ القُبْلِ: أراد كالحدإِ المُفَزَّعَة، فكأنَّ في عيونها قَبَلاً كأنه حَوَل، الحدأ جمع والواحدة حدأة، فهن: يعني الخيلَ، وهم: يعني الفرسان، الجدل: الدرع الجدلاء هي التي حَلَقُها مستديراً ليس بأفطَح، الشريف: مكان، جوانح: قد أكببن في السير، والجنوح: دُنُوُّ الصدرِ من الأرض، الجبل: الكثير.

(٢) المرجع نفسه: ٣ / ١٠١٠ تَعير: تذهب، غيرُ ساكنة: يريد أنها تذهب، حُمُّ الخوافي: يريد الغِربان، حَتْمُها: قضاؤها إذا تَطيَّروا منها.

لهـا خُـفَّـانِ قـد ثُلِبَـا ورأسٌ كـرأس العَـوْدِ شَـهْـبَـرَةٌ نَؤولُ
تبـيتُ الليلَ لا يَخْـفَى عليْـهـا حِـمـارٌ حَـيْثُ جُـرَّ ولا قَـتِـيلُ
كَـمَـشْيِ الأقْـبَلِ السَّـارِي عليـهـا عِـفـاءٌ كـالعـبـاءةِ عَـفْـشَلِيلُ
فـذاحَـتْ بالـوتـائـرِ ثـم بَـدَّتْ يَـدَيْهـا عِنْدَ جـانِبِـهِ تَهِـيلُ (١)

فلا شَكّ أنَ هذه صورةٌ حيَّة متحركة، تدلّ على ذكاء وعبقرية لدى الشاعر الذي رسم لنا هذه الصورة.

وهذا أبو ذؤيبٍ الذي تحدَّث عن الحيوان كثيراً،وقد أجاد الرثاء حتى تقدَّم شعراء هُذَيْل فيه، كما أنه برعَ في تسجيلِ حركات الحيوانْ ومتابعته في البادية، ويظهر ذلك جلياً في كلِّ ما كان يَقُصُّه من قَصَصٍ ، فاستَمعْ إليه في قصيدته العينيةِ التي قالها في رثاء بنيه الخمسة حينما هَلَكُوا في عامٍ واحد، أصابَهُمُ الطاعونُ، وكانوا رجالاً ولهم بأسٌ ونجدةٌ، وكانوا قد هاجروا إلى مصرَ، فبكّاهم جميعاً، وجعلَ صدرَ قصيدته حديثاً بينه وبين امرأة تسائله عن شحوبه وأَرقِه،فيروي لها حُزْنَه وألَمَه لهذه النكبة.

ومما يَلْفتُ النظرَ في هذه القصيدة بدْؤهُ الأبيات ١٥، ٣٦، ٤٩ بمطلع واحد وهو "والدَّهْرُ لا يَبْقَى على حَدَثانه" ففي الموضع الأول يتحدَّثُ عن حمارِ الوحش وهلاكه، وفي الموضع الثاني عن الثَّورِ الذي يفيض القولَ في هلاكه وينعتُه وينعتُ الصائدَ والكلابَ، وفي الموضع الثالث يتحدَّث عن مَصْرَعِ البطل الفارسِ الكاملِ السلاح،ويصف هذا البطلَ وموقفَه إزاء بطلٍ آخر يصطرعان ويتشاجران بالسلاح، فإذا به في النهاية يَخرُّ صريعاً قتيلاً، والمهمّ أن أبا ذؤيب يتَّخذُ من هذه الأنماط الثلاثة عزاءً لنفسه وتسليةً لها،وحَضّاً على الصَّبْر، فهذه الأنماطُ الثلاثة لا شكّ أنّها من مظاهرِ القُوَى الحيويَّة التي تتمثل في الحمارِ والثورِ والبطلِ ، وأنَّها لا تُجْدِي شيئاً أمامَ الموت، لأنه أقوى وأقدَرُ.

---

(١) المرجع نفسه ٣/١١٤٦. مُجَنَأَة: يعني القبرَ، القطيل: المقطوع، غُودر: تُرِك، الثاوي: المقيم، مُذَرَّعة: يعني ضَبُعاً بذراعيها توقيف، أي: آثار، الفَليلُ الشَّعْر والوبَر، شَهْبَرة: مُسنَّة، النَّؤول، أي تمشي كأنها مُثْقَلة، الأَقْبَل: الذي في عينيه قَبَلٌ شبيهٌ بالحَوَل، عفاؤها: وبَرُها وشَعْرُها، عَفْشَلِيل: ثوب عفشليل، أي: جافٌ ثقيل، ذاحت: مرَّت مرّاً سريعاً سهلاً، الوتائر: طرائقُ مرتفعةٌ من الأرض يتبع بها بناءُ القبور، بَدَّتْ يَدَيْها، أي: فَتَحَتْ ما بين يَدَيْها، تَهِيل: تَنْبِشُ.

وهو في الموضع الأول يتحدَّث عن حمار الوحش وينعتُه نعتاً عجيباً،فيصف الحمارَ الوحشيَّ القويَّ المنطلقَ مع أُتُنه بكلِّ قوةٍ ونشاطٍ، وكيف أنه يمرح معها في الأراضي الخِصْبَة في حريةٍ وقوَّةٍ ، ويفاعَةٍ ومَنَعةٍ،وكيف كان ينطلق بالصريخ بأعلى الأصوات كناية عن فَتائه وقوَّته وصِباه، وأنه أخذَ مع أُتُنه في الاصطراع والمغالبة والمرامَحَة، مَرَّةً على سبيل الجِدِّ، وأخرى على سبيل اللهو والمرح، مما يدل على ما كانوا ينعمون به من حرية ومَرح وانطلاق، فيقول:

والدَّهْرُ لا يَبْقَي على حَدَثانِه ... جَوْنُ السَّراة له جَدائدُ أَرْبَعُ

صَخِبُ الشَّوارِبِ لا يزالُ كأنَّهُ ... عَبْدٌ لآلِ أبي رَبيعةَ مُسْبَعُ

أكلَ الجَميمَ وطاوَعَتْهُ سَمْحَجٌ ... مِثْلُ القَناةِ وأزْعَلَتْهُ الأَمْرُعُ

بقَرارِ قِيعانٍ سَقاهَا وابِلٌ ... واهٍ فأَثْجَمَ بُرْهَةً لا يُقْلِعُ

فَلَبِثْنَ حيناً يَعْتَلِجْنَ بِرَوْضِهِ ... فَيجِدُّ حيناً في العِلاجِ وَيَشْمَعُ (١)

ثم يحدثنا عن الصياد الذي كان يتربص بالحمر، وكان انتهاء حياة حمار الوحش على أيدي الصياد، وانتهى أمره بالهلاك والفناء، كما أن الأتن جميعا ذاقت كؤوس الردى ووردت سبيل الفناء،حيث أصاب كل واحدة منهن سهم اخترق جنبها واستقر في أحشائها،فكن بين مصروعة مجدلة، وهاربة يتحرك فيها النَّفَس، ولكنها تعاني سكرات الموت، وستنتهي كما انتهت الأخريات،وقد كانت النِّصَال من الكثرة بدرجة تعثرت فيها الأتن أثناء فرارها، وكانت دماؤُها تسيل على الأيدي والأرجل حتى

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين جـ١ ص١١-١٤، قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان جـ٢ ص١٤٢ . الحَدَثان: مصائبُ الدهر وبلاياه، والجَوْن: الأبيض والأسود من أسماء الأضداد، والمراد به حمار الوحش، السَّراة: أعلى كلِّ شيء، والجدائد: جمع جَدُود، وهي الأتان السمينة التي خَفَّ لَبَنُها، والصَّخبُ: الشديد الصوت، الشوارب: عروق في الحلق، ومجاري الماء في العُنُق. الجَميم: النبتُ أولُ خروجه من الأرض والحمارُ لا يتمكن منه آنئذ، العَميم: النبتُ الذي ارتفع قليلاً حتى يُتَمَكَّنَ منه، والسَّمْحَج: الأتان الطويلة على وَجْه الأرض، القناة: الرمح، أزْعَلَتْهُ: نَشَّطَتْه، الأمرُع: جمع مَرْع وهو الخِصْب، القرار: مكان الاستقرار، القيعان: جمع قاع وهو أرض سهلة مطمئنة، والوابل: المطر الشديد، واهٍ: متفجر بالماء، أثجَم: أقام وثبت، يُقْلِع: ينقطع، يَعْتَلِجْنَ: يصطرعن ويتسابقن، ويَشْمَعُ: يلعب ويهزل.

كونت خطوطاً حمراء تُري الناظر أنها ملفوفة بتلك البرود الملونة بالحُمرة في خطوط طويلة فيقول:

فَبَدا لَهُ أقْرابَ هذا رائِغاً ... عَجِلاً فَعَيَّثَ في الكِنانَة يُرْجِعُ

فَرَمَى فألْحَقَ صاعِدِيّاً مِطْحَراً ... بالكَشْحِ فاشْتَمَلَتْ عليه الأَضْلُعُ

فأَبَدَّهُنَّ حُتُوفَهُنَّ فهارِبٌ ... بِذَمائِه أو بارِكٌ مُتَجَعْجِعُ

يَعْثُرن في حَدِّ الظُّباتِ كأنما ... كُسِيَتْ بُرُودَ بني تَزيدَ الأَذْرُعُ (١)

وفي الموضع الثاني يتحدث عن الثور الوحشيّ،المُكْتَمِل القُوَى، فيعرض لتنقُّله في الآفاق، وتعوّده حرية الانطلاق،وعدمِ خضوعه لأيّ قيد من القيود، وحريته في التمتع بكل ما حولَه،ثم يتكلَّم عن كلاب الصيد التي رَوَّعَتْهُ وأفزَعَتْه،فهامَ في جوانب الأرض إلى كلّ اتجاه، وبكلِّ سرعةٍ ونشاطٍ، وكان يختفي عن عيون الصائدين، وكيف أنه كان يلجأ إلى شجر الأَرْطَى ويحتمي بين ظلاله،مما يدُلُّ على حَذَره ويَقَظَته، ولكنه خَرَجَ مَرَّةً من ظلال الأَرْطَى ليقفَ في الشمس، فَلحَظَتْه كلابُ الصيد، فأُصيبَ بالجَزَعِ والفَزَعِ،وأطلقَ سيقانَه للريح خوفاً ورُعباً، ثم أخذت الكلابُ تطارده فأدركَتْه وأخَذَ يطعنُها بقرنية الحادَّيْن، ويغرسُهما في لحمها فتلطخا بالدم،وظهرا كأنهما مصبوغان بصِبْغٍ أحمرَ، ثم يشبِّهُ قَرْنَي الثورِ وقد تلطخا بدماء الكلاب بسَفُّودَيْنِ وضع عليهما الشواء ثُمَّ نُزع قَبْلَ نُضجه وإدراكه فظهرا مُلَوَّثَيْن بدم اللحم النِّيْءِ، وهي صورة تمثل حالةَ دفاعه الشديد عن نفسه، ومحاولته الاحتفاظ بالحياة، فكانت نهايةُ الثورِ المحتومةُ بعدَ مقاومته ودفاعه عن نفسه، حيث وقعَ على الأرض وتعفَّرَ بالتراب، وتمدد على جنبه بعد أن لقيَ مصرَعَهُ، فيقول:

---

(١) المرجعان السابقان، الأول ١/٢٣-٢٥، والثاني ٢/١٥٢. الأقرابُ: جمع قُرْبٍ وهو الخاصرة، رائغاً، أي: هارباً، عَجِلاً: مسرعاً، عَيَّثَ: مَدَّ يدَه فأدخلها في الكنانة وهي خزانةُ السهام المحمولة معه خلف ظهره، صَاعديّاً: نسبة إلى صَعْدَةَ، وهي أرض، أو نسبة إلى رجلٍ يقال له صاعد، وبناتُ صَعْدَةَ: حمير الوَحش، والنسبة إليها صاعديّ على غير قياسٍ، مِطْحَراً ملتصق القُذَذ جمع قُذَّةٍ، وهي ريشةُ السهم، أبَدَّهُن: أعطاهن، الحتوف: جمع حتف وهو الموت والهلاك، والذَّماء: بقية النَّفْس، المُتَجَعْجِع: الساقط المصروع اللاصق بالأرض، الظُّبات: جمع ظُبَةٍ وهي طرف النصل من أسفل، البُرود: جمع بُرْدٍ وهو الثوب المعلم، وبنو تزيد: قبيلة من قُضاعة، الأذرع: أيدي الأُتُنِ.

والدَّهْرُ لا يَبْقَى على حَدَثانه ... شَبَبٌ أَفَزَّتْهُ الكلابُ مَرَوَّعُ
شعَفَ الكلابُ الضَّارِياتُ فؤادَهُ ... فإذا رأى الصُّبْحَ المُصدِّقَ يَفْزَعُ
ويعوذُ بالأَرْطى إذا ما شَفَّهُ ... قَطْرٌ وراحَتْهُ بَلِيلٌ زَعْزَعُ
يَرْمِي بعينيهِ الغُيُوبَ وطَرْفُهُ ... مُغْضٍ يُصَدِّقُ طرفُهُ ما يَسْمَعُ
فغَدَا يُشَرِّقُ مَتْنَهُ فبدَا لهُ ... أُولَى سَوابِقِهَا قَرِيباً تُوزَعُ
فاهتاجَ مِنْ فَزَعٍ وسَدَّ فُرُوجَهُ ... غُبْرٌ ضَوارٍ وافيانِ وأجْدَعُ
يَنْهَشْنَهُ ويَذُبُّهُنَّ وَيَحْتَمِي ... عَبْلُ الشَّوَى بالطُّرَّتَيْنِ مُوَلَّعُ
فَنَحا لها بِمُذَلَّقَيْنِ كأنَّما ... بهما من النَّضخِ المُجَدَّحِ أَيْدَعُ
فكأنَّ سَفُّودَيْنِ لما يُقْتَرا ... عَجِلا لَهُ بِشِواءِ شَرْبٍ يُنْزَعُ
فَصَرَعْنَهُ تحتَ الغُبارِ وجنْبُهُ ... مُتَتَرِّبٌ ولكلِّ جنبٍ مَصْرَعُ (١)

---

(١) المرجعان السابقان نفسهما. الأول ١/٢٦–٣٠، والثاني جـ٢ ص١٥٥. الشَّبَبُ: الثور الذي اكتملت سنُّه وتمتْ أسنانُه أو تم شبابُه، أفزَّتْه: استَخفَّتْه وطيَّرَتْه، مُرَوَّعُ: مخوَّف مُفزَّع، شَعَفَ الكلابُ فؤادَه: أذهبتْ عقلَه وملأنَ قلبَه خوفاً، الشَعَفُ: إحراقُ الحبِّ القلبَ، الضاريات: اللاهجة بالصيد، الصبح المصدِّق: هو الفجرُ الصادق، أو المُضِيء إضاءةً ثابتة، عاذ بكذا: لجأ إليه، الأرْطَى: .شجر يلجأ إليه البقر في ساعات الخوف، شَفَّه: آذاه وجَهَده، القطر: المطر، راحَتْه: أصابَتْه الريحُ، البَلِيل: ريحُ الشمال الباردة، الزَّعْزَع: العنيفة التي تُزَعْزِع كلَّ شيء وتُحَرِّكُه، الغيوب: جمع غَيب وهو الموضع الذي لا يرى ما وراءه، طرفه مُغْضٍ: بمعنى مُطْرِق، يشرق متنه: يعرض ظهرَه للشمس، أولَى سوابقها، أي: الكلاب المطاردة له، توزع: تُوقَف وتُحْبَس أو بمعنى تُغْرَى به وتُوَجَّه إليه، وقريباً، أي من الثور، اهتاجَ: تحرك مسرعاً، سدَّ فروجَه: ملأ قوائمه عَدْواً. الغُبْرُ جمع أغبر، وغبراء: يعني الكلاب المطاردة ذات اللون الأغبر المشبه للتراب، الوافيان: الصحيحان السليمان، الأجدع: المقطوع الأذن، ينهشنه: ينزعن لحمه مع التمكن منه، يذبهن: يذودهن عن نفسه، عَبْلُ الشَّوى: ضخم القوائم غليظها، الطرتان: خطان في جنبيه يفصلان بين الجنب والبطن، مُولَّع: فيه توليع، أي: لونان مختلفان، أبيض وأسود. نحا: تحرَّف ليطعَنَها، المذلقان: القرنان الأملسان المسنونان، النضخ: الرش بما ثخن كالدم ونحوه، المُجَدَّح: المحرَّك، الأيْدَع: صبغٌ أحمر، السَّفّود: حديدة مستديرة طويلة لشواء اللحم، لما يُقْتَرا: لم يظهر منها ريح قتار اللحم، أو بمعنى لم يستعملا قبل ذلك، الشَّرْب: الشاربين، يُنْزَع: يُفْصَل عن السَّفّودين. الغبار: التراب. المصرع: المقتل.

obeikandl.com

وعلى هذا النّحْوِ كان وصفُهم للصحراء والبادية، ووصف ما فيها من حيوان أو وَحْش، وكل ما تقع عليه أَعينُهم بين أفناء البادية،فهو وصفُ البدوي الأصيلِ ابن البادية الذي عاش بها ولها، فقد كانوا يرصدون مظاهرَها ومناظرها المتعددة ليُسَجِّلُوها في أشعارِهم، لوحات رائعة، تَوَفَّرَ لها كلُّ مقومات الفنّ والصناعة، وتظهرُ فيها كذلك تجاربُهم المتعددة وخبراتُهم الواسعة في عنايةٍ ملحوظةٍ بالتفاصيل والجزئيات، ومهارة فائقة في استخدام الأصباغ والألوان، وبراعة ممتازة في توزيع الظلالِ والأضواء ومقدرة جديرة بالإعجاب على إشاعة الحركةِ وبثِّ الحياة في كلِّ لوحةٍ منها.

يقول الدكتور أحمد كمال زكي: "والشِّعرُ الهُذَليُّ تحدَّثَ عن الحيوان كثيراً وعنى به عناية تامة، فوصفَه ووصفَ حركاته ومثل هيئاته، وقصَّ علينا من عاداته الشيءَ الكثيرَ،كلُّ ذلك في استغراق وأَناةٍ حتَّى أصبحَ في ديوانهم باباً مستقلاً بذاته. وقد يقال: إن شعراء العرب جميعاً لا سيما في العصر الجاهليِّ فعلوا ذلك، حيث نَجدُ في معلقات القدماء وفي غيرِها إشارات[1] قوية إليه، بل وقفات طويلة يهتم فيها الشاعرُ بوصفَ كلِّ جزء من أجزاء الحيوان كما نَرَى عند طَرَفةَ حين وصف ناقتَهُ، ولكن عناية الهذليينَ بالحيوان كانت فيما يبدُو لي أقوى، واهتمامهم بالتحدُّث عنه ووصفه كانا أوضحَ وأشدَّ، وإذا كان قد غلب على شعراء المعلقات أن يصفوا الناقةَ أو الفرسَ، فإن الهذليينَ لم يعنوا بهما ـ خاصّة الفرس. وحتى هؤلاء الذين وصفوا الحيوان الأخير أخطؤوا في وَصْفِهم لأنه لم يكن في حياتهم دائماً.

وجَّه الهذليون أنظارَهم إلى البادية ووصفوا ما فيها من وَحْشٍ، فتكلَّموا عن الذئاب والضباعِ والحُمُرِ والبقر، وعرضوا للظَّليم والنسور والعقْبان، وتكلموا عن أشكالها وطبائعها، ووقفونا على سلوكها في الفجرِ وخلال النهار،وإذا الليلُ أَقْبَلَ، كلُّ ذلك في تَأَنٍّ وفي ميلٍ كبيرٍ إلى نقلِ كُلِّ ما يتصل به نَقْلاً دقيقاً يدلُّ على قوَّة ملاحظتهم، وشعْرُ الهذليين في الحيوان يتكلَّم عن ذلك كلِّه، ونراه في كلِّ مَوْضعٍ بديوانهم حتى لَيُخَيَّلَ إلينا أنَّ الشاعرَ يُقْحِم هذا الوصفَ في قصائده إِقْحاماً، وكأنما كانَ يلتمس كلَّ وسيلةٍ ليتحدثَ عنه"[2].

---

(١) في الأصل: إشارة، وما هنا أنسب.

(٢) شعر الهذليين للدكتور أحمد كمال زكي ص٢١٤.

ويقول في موضعٍ آخر: "إنَّ الهذليين لم يكونوا يقصرون حديثَهم على هيئة الحيوان فقط، بل ربما كانت عنايتُهم بوصف حالاته أكثر،ومن هنا نجا شِعْرُهُم من هذا المِلل الذي قد نشعرُ به نحن إذا قرأنا وصف أعضائه واحداً واحداً"(١).

والحقّ أن مَن يُسَرِّحُ نَظَرَه في أشعار الهذليين يحسّ إحساساً عميقاً بأنَّهم لم يكادوا يتركون شيئاً في البادية وما فيها من حيوان أو وحشٍ دون أن يقفوا عندَه ليصِفُوه في دقَّةٍ تَلْفِتُ النظرَ،وتنتزع الإعجابَ.

وحياةُ البادية قد ضَمنَتْ لهُذَيْلٍ السليقةَ اللغويةَ، والفصاحةَ البدويةَ،وخَلَصَتْ لهم لغةُ البادية صافيةً نَقيَّةً، وتزوَّدُوا منها بثروةٍ ضخمةٍ من الألفاظ والتراكيب، ولذلك تظهرُ في أشعارهم سماتُ البداوة واضحةً، لأنهم أهلُ البادية،أَضِفْ إلى ذلك أنهم أحبُّوها وعَشِقُوها.

فهذا قَيْسُ ابن العَيْزَارَة يقولُ يومَ أن أسَرَتْه فَهْمٌ فأفلتَ منهم، وكان تأبط شرّاً قد أخذَ سلاحَه فيقول في قصيدة طويلة:

سَرَا ثابتٌ بَزّي ذَميماً ولَمْ أَكُنْ ... سَلَلْتُ عَلَيْه شَلَّ مِنّي الأَصابِعُ
فيا حَسْرتَا إذا لم أُقاتِلْ ولم أُرَعْ ... من القومِ حَتَّى شُدَّ مِنّي الأَشَاجِعُ
فَوَيْلٌ بِبَزٍّ جَرَّ شَعْلٌ على الحَصَا ... فَوُقِّرَ بَزٌّ ما هنالك ضائعُ
فإنَّكَ إذْ تَحْدُوكَ أمُّ عُوَيْمِرٍ ... لَذُو حاجةٍ حافٍ من القومِ ظالِعُ
وقال نساءٌ لو قُتِلتَ لَسَاءَنا ... سِواكُنَّ ذُو الشَّجْوِ الذي أنا فاجِعُ
رجالٌ ونِسْوانٌ بأكْنَافِ رايةٍ ... إلى حُشْنٍ تلكَ العُيونُ الدَّوامِعُ
سَتَنْصُرُني أفناءُ عَمْرٍو وكاهلٍ ... إذا ما غَزَا منهُمْ مَطِيٌّ وَعَاوِعُ
سقَى اللهُ ذاتَ الغَمْرِ وَبْلاً وَدِيمَةً ... وجادَتْ عليه البارقاتُ اللَّوامِعُ
بما هي مَقْناةٌ أنيقٌ نباتُها ... مَرَبٌّ فَتَهْواها المَخاضُ النَّوازِعُ (٢)

---

(١) شعر الهذليين للدكتور أحمد كمال زكي ص٢١٧.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٥٩١، سَرا ثابتٌ بَزِّي: يعني تأبط شراً، خلعه، أي: سلبه سلاحه حين أسره، ذميماً، أي: هو ذميم، شَلَّ مني الأصابع: دعا على نفسه ألا أكون سَلَلْتُ عليه السيفَ فقتلْتُه، وشُعْلٌ: لقب تأبط شراً، وكان تأبط شراً قصيراً، فَلَبِسَ سيفَه، فَجَرَّه على الحصا، فوقَّرَه: جعل فيه وقرة، وقوله: «ويلٌ ببَزٍّ» يتعجب منه، بَزُّه: سلاحه، =

ولعلَّ من الواضحِ كثرةُ الغريبِ، والقصيدةُ كلُّها على هذا المنوال. ولننظر كذلك إلى الدّاخلِ بنِ حَرَام حين يقول:

تَذَكَّــــرَ أُمَّ عـــبـــدِ اللهِ لَمّا ... نَأَتْهُ والنَّوَى منهـــا لَجُـــوجُ
ومــا إنْ أَحْــوَرُ العــينينِ رَخْصُ الــ ... ــعظامِ تَــرُدُّهُ أُمٌّ هَــدُوجُ
بأحْسنَ مَضْحكاً منهـا وَجِيداً ... غـداةَ الحِجْرِ مَضْحكُهـا بَلِيجُ
وهـاديةٍ تَـوَجَّسُ كُـلَّ غَــيْـبٍ ... إذا سَـامَتْ لَهـا نَفَسٌ نَشِيجُ
تُصِيخُ إلى دَوِيِّ الأرضِ تُهْـوِي ... بمِسْمَعِهـا كما أَصْغَى الشَّجِيجُ
عَـزَزْنَاهَا وكـانت في مَصَـامٍ ... كـأنَّ سَـرَاتَهـا سَـحْلٌ نَسِيجُ
أُتِيحَ لهـا أُغَـيْـبِرُ ذو حَشِيفٍ ... غَـبِيٌّ في نِجَـاشَـتِـهِ زَلُوجُ
أحـاطَ النـاجِشَـانِ بهـا فجـاءَتْ ... مكـاناً لا تَـرُوغُ ولا تَعُــوجُ (١)

والقصيدةُ طويلةٌ،ويصفُ فيها بقرةً وحشيةً، وهي مليئة بالغريب على ما هو ظاهر،ولا بأس أن نستَمع إلى أبي ذُؤَيْب وهو يقول:

= وُقِّرَ: صارت فيه وقرات، أي: هزمات بالسيف. أمُّ عُوَيْمر: الضَّبُع، حاف ظالع: لا يقدر على الهرب منها، الشجو: الحزن، يقول: سِواكُنَّ الذي يَضُرُّ قَتْلي لا أنتُن، نسوان: يَعْني بناته وأهله، راية وحُثُن: بلدان، أكنافها: نواحيها، المطي: الرَّجّالَة، وعاوع: أجرياء على السير، بارقات: سحائب فيها برق، لوامع: تلمع بالبرق، مَقْناة، أي: موافقة لكلٍّ من نَزَلَها، مَرَبٌّ: مجمع، النوازع: التي تنزع إلى أوطانها، مخاض: إبل حوامل لستة أشهر، أنيق: مُعْجِبٌ.

(١) المرجع السابق ٢ / ٦١١. نَواها: وَجْهُها الذي أخذَتْ فيه، نأَتْه: بَعُدَتْ عنه، لَجُوجٌ: قد فَعلت ذلك مَرَّةً بعد مرّة، تَرُدُّه: تتعَهَّدُه في ذهابها ومجيئها وتطوف عليه، لها عليه هَدَجَة، أي: حنينٌ وتَهَدُّجٌ، رَخْصُ العظام، أي: حديثُ العهد بالنِّتاج، فعظامه رَخْصَة لَيِّنَة، الحِجْر: الذي بالبيت يريدُ أنه رآها ثَمَّ، بَليجٌ: مُشرقٌ، المَضْحَكُ: موضع الأسنان التي تبدو إذا ضَحكَتْ، هادية: بَقرةٌ تتقدَّمُ كلَّ البقَرِ، توجَّسُ: تَسْمَعُ على ذُعْرٍ، سامَت: رَعَتْ، نَشيجٌ: انتحابٌ من صَدْرِها، والنشيجُ صوتٌ شبيهٌ بالنفَسِ، تُصيخ: تُصْغي وتتسمَّعُ، تُهْوي به: تضعُه على الأرض، عَزَزْناها: غلبناها على هواها فهربتْ منا، مَصامٌ: يريد موضعاً كانت ترعى فيه، سَحْلٌ: ثوب أبيض، نَسيجٌ، أي: كأَنَّ في ظهرِها ثوباً أبيضَ يمانياً، الأُغَيْبرُ: هو الدَّاخلُ يعني نَفْسَه، حَشيفٌ: ثوبٌ خَلَقٌ، غَبيٌّ لا يُرَى، أي: خَفِيٌّ، النّجاشَة: استخراجُ الصيد وإثارته وحَوْشُه، زلوجٌ: يمرّ مرّاً سريعاً، الناجشان: اللذان يَحُوشانِ وهما صائدان، تعوجُ: تَعْطِفُ.

obeikandi.com

أَصْبَحَ مِنْ أُمِّ عمرٍ بَطْنُ مَرٍّ فأَكـ … ـنافُ الرَّجِيعِ فَذُو سِدْرٍ فأَمْلاحُ
وَحْشاً سِوَى أَنَّ فُرَّادَ السِّباعِ بها … كأنَّها مِنْ تَبَغِّي النَّاسِ أَطْلاحُ
يا هَلْ أُرِيكَ حُمُولَ الحَيِّ غادِيَةً … كالنَّخْلِ زَيَّنَها يَنْعٌ وإِفْضَاحُ
هَبَطْنَ بَطْنَ رُهَاطٍ واعْتَصَبْنَ كَما … يَسْقِي الجُذُوعَ خِلالَ الدُّورِ نَضَّاحُ
ثم شَرِبْنَ بِنَبْطٍ والجِمالُ كأَنْـ … ـنَ الرَّشْحَ مِنْهُنَّ بالآباطِ أَمْساحُ (١)

إلى آخر القصيدة، فنلاحظ كثرة الغريب في أشعارهم.

ولا شكّ أنّ غرابة الألفاظ عندهم كانت نابعة من طبع أصيل، ثم إن تلك الألفاظ والكلمات كانوا يتداولونها في باديتهم، فجاءت غرابتُها عن طبعٍ وعن أصالة، ثم عن عفوية فهي بدون تكلّف، ولذلك كانت جميلة في كلِّ الأحيان، فهذا المُتَنَخِّلُ يقول في طائيته التي يتحدَّثُ فيها عن العبثِ والمجونِ واللهو، ويصف النساءَ وإقبالهنَّ عليه، ثم يصف الفرَسَ الجميلةَ الفاخرة، وخيلائه وتمتعه بالنساء، ثم يتحدَّث فيها أخيراً عن الخمر حيث وصفها وصفاً جميلاً، كما وصف الساقي وأكوابَ الشراب، وهي قصيدة طويلة يقول فيها:

عَرَفْتُ بأَجْدُثٍ فَنِعافِ عِرْقٍ … عَلاماتٍ كَتَحْبِيرِ النِّماطِ
كَوَشْمِ المِعْصَمِ المُغْتالِ عُلَّتْ … نَواشِرُهُ بِوَشْمٍ مُسْتَشاطِ
وما أَنْتَ الغَداةَ وذِكْرُ سَلْمَى … وأَضْحَى الرأسُ منكَ إلى اشْمِطاطِ
كأَنَّ على مَفارِقِهِ نَسِيلاً … من الكَتَّانِ يُنْزَعُ بالمِشاطِ
فإِمَّا تُعْرِضِينَ أُمَيْمَ عَنِّي … ويَنْزِعْكِ الوُشاةُ أُولُو النِّباطِ
فَحُورٍ قَدْ لَهَوْتُ بِهِنَّ وَحْدِي … نَواعِمَ في المُروطِ وفي الرِّياطِ

---

(١) المرجع نفسه ١ / ١٦٤. أكناف: نواحٍ، فُرّادُ السباع: يقال لا ينفرد من السباع إلا أخبثها، الأطلاحُ: المُعْيِيَةُ، يريد أنها تَرْبِضُ وتَلْزَقُ بالأرض كما يَصْنَعُ المُعْيِي، من خُبْثِها تَبْتَغي الناسَ، وتطلُبُهم. فهي لَبُودٌ لا تَبْرَح، فكأنَّها أطلاحٌ مُعْيِيَةٌ، ياهَلْ، يريد يا هذا هل، إفضاح: إذا بدأتْ فيها الحمرةُ والبياضُ، كالنخل شبّه الإبلَ بالنخل، يَنْعٌ: إدراكٌ، ويقال: أفْضَحَ النخْلُ: إذا بدَتْ حُمرتُه وصُفرتُه، رُهاط: موضع على ثلاث ليالٍ من مَكة وهي لثقيفٍ كما ذكر السُّكَّري، اعْتَصَبْنَ: اجتمعنَ، نَضّاح: الرجلُ الذي يَسْتَقي، ويقال: البعير، نَبْط: اسم وادٍ، وهو شعب من شعاب هذيل. أمساح: جمع مِسْح وهو الكساء من الشعر، والرشح: العَرَق، شُبِّهَ بالمسوح، لأن جلودها تَسْوَدّ على العَرَق.

obeikandl.com

لهــــوتُ بِهِنَّ إذْ مَلْقِي مَلِيحٌ　　　وإذْ أنَا في المَخِــيلةِ والشَّطاطِ
أبيتُ على مَــعـارِيَ فـاخِـرَاتٍ　　　بِهِنَّ مُلَوَّبٌ كَــدَمِ العــبَــاطِ
يُقـــالُ لهنَّ مِن كـــرمٍ وحُـــسْنٍ　　　ظِبـــاءُ تَبَــالَةَ الأُدْمُ العَـــوَاطِي (١)

إلى آخر القصيدة التي نشعر بجمالها وجمال ألفاظها حقاً،ثم جمال جَرْسِها وموسيقاها وهي مليئة بالغريب، إلا أنه الغريب الذي لا تكلُّفَ فيه.

وهذا أبو صخر - مع أنه إسلاميٌّ - يقول فلا نجدُ أثرَ التحضر في شِعرِه كثيراً، كقوله في قصيدةٍ طويلةٍ يرثي بها ابنه داود، وقد بدأها بذكرِ الشباب ثم الغزل ثم المغامرات ثم عزوف النساء عنه:

تَعزَّيْتَ عَن ذِكْرِ الصِّبَا والحَبائِبِ　　　وأصْبَحْتَ عِزهًى للصِّبَا كالمُجانِبِ
وأصْبَحْتَ تَلْحَى حينَ رِعْتَ محمداً　　　وأصحابَه أنْ يُعْجَبوا بالكواعِبِ
ولو أنهم قــالوا لقــد كنتَ مَــرَّةً　　　عَـرَفْتُ ولم أُنكِرِ جوابَ المُجانِبِ
فإن يَلْبَسـوا بُرْدَ الشـبابِ وخَالَهُ　　　وأَغْتَدِ في أطمـارِ أَشْعَثَ شاحِبِ
فسِرْبٍ كأمثالِ الدُّمَى مُنْتَهَى المُنَى　　　يُضِئْنَ الدُّجَى لُفٍّ ثقالِ الحقائِبِ
قِصارِ الخُطا شُمٍّ شُموسٍ عنِ الخَنا　　　خِدالِ الشَّوَى فُتْخِ الأَكُفِّ خَراعِبِ
كَموزِ السُّقَى في حائرٍ غَدِقِ الثَّرَى　　　عِذابِ اللَّمَى يُحْبَيْنَ طَلَّ المَناسِبِ
كبيضِ النَّقا في حاجِرٍ قَرِدِ الثَّرَى　　　جَلَتْهُ الصَّبا مِيلٍ طِوالِ الذوائِبِ

---

(١) المرجع نفسه ٣ / ١٢٦٦ أجدُثٌ ونِعافُ عِرْق: مواضع كما ذكر السُّكَّرِيُّ، النماط، جمع نَمَط، كتحبير: كتنقيش، الوشم: أن يوشَم الذراع واللِّثَة بالإبرة ثم يُحشى نَؤُوراً. فيقول: كأن آثارَ هذه الديار وشمٌ في مِعْصَم مُغْتال، والمُغْتالُ: الممتلئ، نواشِرهُ: عَصَبُه، عُلَّت: وُشم مرَّةً أخرى وهذا مثل. مستشاط: استُشيط، أي: طار كل مطير، وانتشر في الساعد، يَنْزِعْك: يَوَدُّونَك ويُقَرِّضُونك، أولُو النِّباط: الذين يَسْتَنْبطون الأخبارَ ويستخرجونها. الحور: الشديدةُ بياضِ الحدَقَة الشديدةُ سوادها، مَلَقِي: لينُ كلامي وهو التَّمَلُّق، الشِّطاط: حُسْنُ القوام، المَخيلة: الخيلاء، العباط: جَماعة العَبيط والعبيط ما ذُبح أو نُحر من غير مَرَضٍ فدمُه صافٍ، المُلَوَّب: المطليُّ بالطيب المَلاب، العواطِي: اللواتي يتناولن أطراف الشجر، والواحدة عاطِية.

obeikandi.com

تَصابَبْتُ حتى اللَّيلِ منهنَّ رَغْبَتي رَوانِي في يومٍ مِنْ اللَّهْـوِ هاضِبِ (١)

إلى غير ذلك من الأمثلة التي تتضح فيها الغرابةُ في الألفاظ.

والحق أنَّ الغرابةَ صفةٌ تميزُ أشعارَ الهذليين،وهي سِمَةٌ من سِمات شعرهم،ومن الواضح أنّ البادية كان لها أكبرُ الأثر في ذلك، فشعرُ البادية في ألفاظه مثال صادق للشِّعر الفطري القديم، وصورةٌ حَقَّةٌ لهؤلاء الشعراء الذين عاشوا فيها وفُتِنوا بها،وعَرَفوا وحوشَها وسائرَ حيوانها.

وينبغي أنْ نلاحظ أنّ الألفاظ الغريبةَ كانت تصدر عنهم عفواً،وبدون أن يهتموا بها أو يزينوها، فهي طبعية وبدون تكلُّف.

والحقّ أن شعرَهم في البادية كان حُلواً يسيل عذوبةً ورِقَّةً،ويدلّ على طبعٍ وأصالةِ فنِّيَّة، ويدلّ كذلك على مَقدِرة فائقةٍ في تخيُّرِ الألفاظ من فصيح العربية.

يقول الدكتور سليمان ربيع: "لسنا ممن يقول بغرابة اللغة الجاهلية، أو صعوبة عباراتها، فذلك يجبُ أن يُقاسَ بمستوى ومعارف الجاهليين أنفسهم،وما دام هذا الأدب كان مفهوماً لديهم يتلقَّوْنَه ويعارضونه ويتأثرون به فهو أدبهم السهلُ الطبعيُّ المعروفُ(٢).

والواقع أن علماء اللغة وجدوا في أشعارِ هُذَيْل كنزاً ثَرِيّاً من كنوز اللغة العربية، يستمدون منه شواهدَهم على الغريب، الذي راحوا يجمعونه من البوادي ليكملُوا به موادَّهم اللغوية. ويكفي أن ننظر في معجم لسان العرب لنرى كيفَ تَنتشر فيه الشواهدُ من أشعارِ هُذَيْل على كثيرٍ من المعاني التي كان اللغويون يُفَسِّرون بها غرائبَ اللغةِ وشواردَها، فقد انتشرت الشواهدُ فيه من أشعارِ هُذَيْلٍ انتشاراً واسعاً وبعيدَ

---

(١) المرجع نفسه ٢ / ٩١٥ العِزْهَى: الذي لا يحبّ اللهوَ، رِعْتَ: رجعتَ، تَلْحَى: تلوم. محمد: ابنه، الخال: من البرود، أغتدي: أغدو في أطمار، أي: في خُلقان، شموس: يَنْفِرْنَ، خدال: غلاظ، فُتْخُ الأكفِّ من الرُّخوصة، خَراعبُ: يَنْثَنِيْنَ ليناً، السُّقَى: التي تُسْقَى الماء، حائرٌ: مُجْتَمَعُ الماء، كثيرُ الماء، وحاجر مثلُه، اللَّمَى: اللَّعَس، طَلٌّ: أَحْسَنُ المُناسب، قَرِدٌ: مُجْتَمِعٌ رَطْبٌ، تَصَابَبْتُ: أَصَبْتُ صَبَابَةً، هاضبٌ يقول: كانوا فيه قد هَضَبُوا في اللَّهو، وما زالوا يَهْضِبون في اللهو، الرُّنوُّ إدامة النظرِ في لين، واللهو مع شغل القلب والبصر وغلبة الهوى.

(٢) محاضرات في الأدب الجاهلي د. سليمان ربيع ص٦٥.

المدَى، ففي هذا المعجم وحدَه يتردد اسم أَبي ذؤيب دون غيره من شعراء هُذَيْل أكثرَ من ست آلاف مرة، يقول الدكتور عبد السلام سرحان: "ويُعَدُّ شعره ـ أبي ذؤيب ـ سجلاً ضخماً للكلمات اللغوية التي نَطَقَ بها العربُ الأقحاحُ في البيئة العربية الخالصة، ولهذا ليس بعجيب أن يتردَّدَ اسمُ أبي ذُؤَيْبٍ وأبياته في لسان العرب أكثر من ست آلاف مرَّة، ولم يحظَ أَحدٌ بمثل هذه المكانة من الشعراء الذين اسْتُشْهِدَ بشعرِهم في كتب العلم والأدب[1].

ثم إنّ الأمر كذلك في غير لسان العرب من معاجم اللغة المطولة كتاج العروس للزَّبِيْدي وغيره من المعاجم. ثم مصادر الأدب العربي التي تُعْنَى بالغريب كالكامل للمبرّد، والآمالي للقالي وغيرها. فهناك شواهد كثيرة جداً من أشعارِ هُذَيْل على معاني الألفاظ اللغوية الغريبة التي يعرض أصحابها لتفسيرها.

والحق أن الغرابَة في أشعارِ هُذَيْل التي اكتسبتها من البادية، تُعتَبَر بحراً زاخراً وكنزاً ثميناً للغة والأدب، يقول أستاذنا الدكتور عبد السلام سرحان: "إن قبيلةَ هُذَيْلٍ كانت جُذَيْلَ الشِّعرِ المُحَكَّكَ وعُذَيْقَهُ المُرَجَّبَ، إذ كانت في الذّروة العليا من اللغة، وفوقَ القمَّة الرفيعة لدولة الشِّعر والأدب، وقد حَكَوْا أنّ الشافعيَّ ـ رحمه الله ـ كان يحفظ شِعرَ هُذَيْلٍ كلَّه ويفخر بذلك، ويبلغ المروي منه (٥٠٠٠) خمسة آلاف بيت.

وقد عَنى علماءُ اللغة والأدب بجمع أشعارِ هُذَيْل، وشرحِها وتنسيقِها، وعلى رأسهم الأصمعيُّ وأبو عُبَيْدَةَ،وأبو عَمْرو الشيباني وابنُ الأعرابي، وأبو سعيد السُّكَّرِيُّ وغيرهم.

وكتُب اللغةِ كلُّها تَسْتَقِي من نبعِ الشِّعرِ الهُذَلي، وتَكْرَعُ من حياضِه في شَتَّى الموادِّ[2].

---

(١) قطوف من ثمار الأدب للدكتور/ عبد السلام سرحان جـ٢ ص١٢٠.

(٢) المرجع السابق ص١١٩.